

مجلة شهرية تعنى بالبحوث الدينية
وبشؤون الثقافة والفكر

تصدرها وزارة عموم الأوقاف
الرباط
المغرب الأقصى

العدد العاشر
السنة الاولى
رمضان ١٣٧٧
ابريل ١٩٥٨
الثمن ١٠٠ فرنك



فكرة توحيد المغرب العربي ، بدات تخرج من طور الامنية ، والتفكير النظري ، الى طور التطبيق والتنفيذ والتحقيق .

بلاد يوحد بينها كل شيء ، ويوحد بينها على راس كل ذلك رغبة اهلها في التوحيد ، وما دامت هذه هي رغبة المواطنين في كل من تونس والجزائر والمغرب ، فانها متحققة لا محالة ، طال بها الزمان او قصر ، ولن يطول بها ابدا بحول الله .

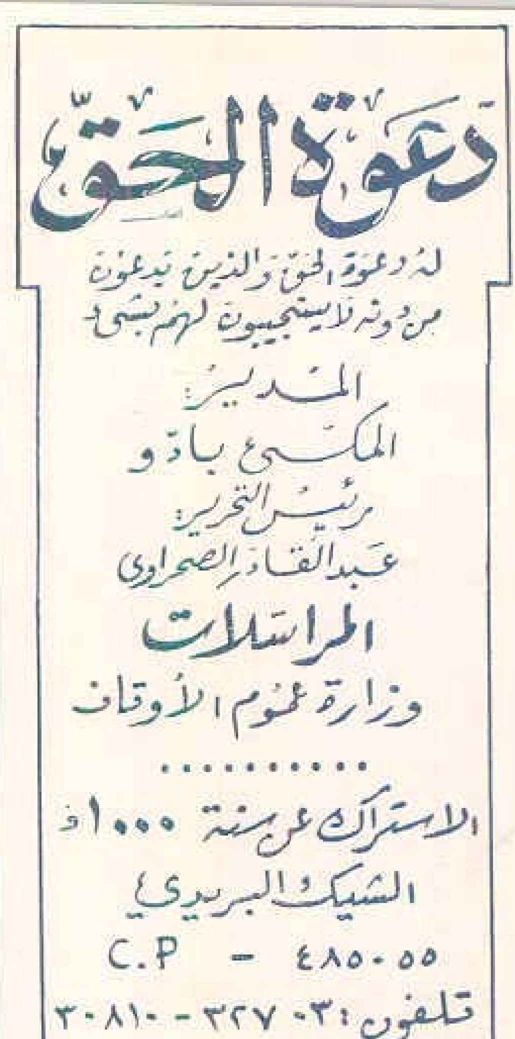
مغرب عربي موحد ، ومستقل، وغير خاضع لاي نفوذ اجنبي، ولا يوجد فوق اراضيه اي جيش آخر غير جيشه المسؤول وحده عن حمايته والدفاع عن كيانه ، تلك هي الغاية التي تهتف بها اليوم تونس والمغرب ، وتجرد من اجلها الجزائر السلاح في حرب مقدسة ، وجهاد مشروع ، وكفاح وطني واع ، مؤمن بالمستقبل، مؤمن بالوسائل التي ينهجها للوصول الى المستقبل المنشود .

واذا كانت السياسة تعمل عملها لتحقيق الوحدة في كل من تونس والمغرب ، وكان الكفاح المسلح في الجزائر يعمل من اجل نفس الغاية ، فهل لغير رجال السياسة والحرب في الاقطار الثلاثة ان يعملوا بدورهم شيئا لتحقيق التوحيد ؟ هل للادباء والمؤرخين والعلماء والباحثين ان يقوموا بدور فعال في تحقيق امنية الساعة التي بدات تتبلور فيها كل الاماني الوطنية لاقطار المغرب ...ربي .

نعم ، ان بوسعهم ان يفعلوا ، وان يفعلوا الكثير جدا ؛ بوسعهم ان يعطوا لهذه الامنية قالبها الفني ، بان يعبروا عنها شعرا وقصصا وشعارات واهازيج تهتف بها الجموع وتغنيها في البيوت وعلى ارصفة الشوارع ، وفي الحقل والمعمل وفي كل مكان؛ بوسعهم ان يفتحوا امام الجماهير كتب التاريخ ، وان ياخذوا باصابعها ليضعوها على الصفحات المتلالئة المشرقة ، وان يكشفوا لها عن سر هذا الاشراق ، وعن سر الظلمات التي كانت تعترض طريقه ، فقد كانت وحدة المغرب العربي في التاريخ دائما سر قوته وعظمته ، وكانت التجزئة في اطراف المغرب العربي دائما سر ضعفه وتخاذله وتاخره ؛ بوسعهم ان يكشفوا للعيان عن طريق الجغرافيا والجيولوجيا وعلم اللغات وعلم الاجتماع وغيرها من العلوم، ان المغرب العربي ليس الا قطرا واحدا، شاءت له الاطماع الشخصية والاقطاعية في بعض ظروفه التاريخية ، ان يكون اقطارا متعددة ، يختلف عددها باختلاف عدد المتحكمين والغالبين والمنتصرين ، وشاء له الاستعمار الفرنسي في العهود المتاخرة ، ان ينقسم لفظيا بين استعمار وحماية وانتداب ، وان يتوحد بالفعل في العذاب والتنكيل والتشريد والاذى والاضطهاد . وشاءت له عزيمة ابنائه اخيرا ان يستقل وان يتوحد ، ليواجه الاستعمار صفا واحدا كالبنيان المرصوص .

ان مسؤولية رجال الفكر في تحقيق وحدة المغرب العربي ، لا تقل عن مسؤولية الساسة ، ولا عن مسؤولية المجاهدين . انه باب آخر للعمل ينفتح امامهم على مصراعيه ، ونحن نرجو ان يلجوه في ثبات وعزم ، خصوصا ومادة العمل لا تعوز من يبحث عنها ، ولا تستعصي على من يحاول ان يصوغ منها لبنات جديدة يشيد بها لقومه مجدا جديدا ويحكم بها بناء السد الذي نرجو ان يحول بيننا وبين الاعيب الاستعمار ، ووقاحته ، ومنطقة السخيف .

دعوة الحق



صورة الغلاف

وادي دادس بسكورة في الجهة الجنوبية من الاطلس الكبير .

تمثل الصورة بيتا للسكنى ، من سلسلة المساكن المبنية بين واحات النخيل .

هندسة متينة، وتنميق جميل بالقرميد المتداخل . نخيل وثلوج وشمس مشرقة ، وسماء صافية .



الشيخ محمد عبده

موقفه من الشبه والمتشابه

للزعيم الأستاذ
علال الفاسي

القسم الثاني من المحاضرة العلمية القيمة ، التي القاها بفاس ، الزعيم الاستاذ علال الفاسي ، بدعوة من جمعية العلماء

2

والآن وقد عرفنا قيمة العقل في نظر عبده ، فماذا كان موقفه من علم الكلام وموقفه من الفلسفة ؟

نجد الجواب على ذلك في مقدمة رسالة التوحيد ، حيث تعرض الاستاذ في ايجاز مفيد لتاريخ علم الكلام وكيف نشأ من المسائل العقلية التي ارشد اليها القرآن الكريم بتوجيه البشر الى الفكر والنظر واستخلاص المجهول من المعلوم ، ثم اخذ يتسع بعد الخلافات السياسية التي وقعت بين الصحابة وما ترتب عنها من مذاهب دينية ، احتاج السنيون معها الى المقارعة بالدليلين العقلي والنقلي . ولكن هذا الخلاف لم يكن يؤثر في تمسك جميع المسلمين بالاحكام الدينية واتباعها، الى ان نشأت فرق الباطنية التي اخذت تفسر القرآن بما يبعد عن الخطاب ، بعد الخطأ عن الصواب . فتألب المسلمون ضدهم وبدأ النظر في الفلسفة القديمة ، فتكونت جماعات من رجال العلم والدين ، أمثال الاشعري ، والباقلاني ، وامام الحرمين ، تسلك مسلكا وسطا بين المتطرفين من السلفيين والمنحرفين من العقليين ، ثم جمد اتباعهم في الادلة التي نظموها ، الى ان جاء الغزالي فحرر علم الكلام من التحجر في الادلة ، وبين كيف ان دليلا او ادلة قد يظهر بطلانها ، ولكن قد يستدل على المطلوب بما هو اقوى منها ، فلا وجه للحجر على الاستدلال ، ثم بين كيف اختلطت مسائل الكلام بمسائل الفلسفة ، ثم كيف انتشرت الفوضى العقلية بين المسلمين تحت حماية الجهلة من ساستهم ثم ختم قائلا :

« هذا مجمل من تاريخ هذا العلم ، ينبئك كيف اسس على قواعد من الكتاب المبين ، وكيف عبثت به في نهاية الامر ايدي المفرقين ، حتى خرجوا به عن قصده وبعدوا به عن حده » .

وهكذا يمكننا ان نؤكد ان موقف عبده من علم الكلام الاسلامي ، موقف التأييد والعضد ، ولكن على اساس التجديد والاصلاح ، فهو يدعو الى تنقيته من شوائب الابحاث الفلسفية الخارجة عن موضوعه ، كما يدعو الى النظر في موازينه وادلته وتجديد ما يحتاج للتجديد منها ، عملا بقول الغزالي : (ان دليلا او ادلة قد يظهر بطلانها ولكن قد يستجد ما هو احسن عنها) .

وما دامت المسألة مسألة اجتهاد وعمل على التوفيق بين صريح المنقول وصحيح المعقول ، فلم لا يواصل المسلمون وخاصة علماؤهم جهودهم في هذا الميدان الذي هو في نظر الكثير من علماء الغرب ، اقوى العناصر الانسانية في الحضارة العربية ، والعجيب ان يقوم في المسلمين اشخاص مثل الاستاذ احمد امين ، والدكتور هيكل ، يرددان نهاية علم الكلام ، فيقول الاول: ان ادلته لا تصلح الا للمعتقد ، ويدعو الثاني الى المذهب الايجابي ، مع انه من الممكن لكل منهما بذل الجهد لاثبات وجود الله وصفاته بالطرق التي يريانها ، دون الغاء علم كامل بذل فيه الاسلاف من الجهد والعمل الشاق ما لا يستطيع احد منا اليوم بذل عشر معشاره .

نعم ان الاسلوب الذي تدرس به كتب الكلام والمنطق الاسلامي ، وهو غير المنطق الارسطاليسي ، في المعاهد الدينية ، هو اسلوب عقيم استغنى بالقشور عن اللباب ، ولكن هذا ما ينبغي معالجته بوسائل البحث الحديث والكتابة المستجدة ، وكم يعجبني ان انوه هنا

بالمجهود الذي بذله صديقي الدكتور علي سامي النشار في كتابه (مناهج البحث عند مفكري الاسلام ، ونقد المسلمين للمنطق الارسطاطاليسي) فهو من الامثلة التي يجب ان تتبع في احترام الخلف لعمل السلف ، ثم المضي في طريقهم الى الامام .

اما موقف عبده من الفلسفة فهو موقف المسجل لما قام به المسلمون من بحث وتنقيب ودراسة حرة ، وما وجده الفلاسفة من حماية في كنف الحكومة الاسلامية التي لم تكن تعرقل بحث باحث ولا دراسة دارس بل كانت تشجع وتساعد .



الاستاذ احمد امين

والذي نفهمه من مجموع كلام الاستاذ الامام ، انه يدعو لتجديد الاختصاص ، فعلم الكلام يجب ان يقوم على اساس البحث عن الوسائل المؤيدة لوجود الله وما جاء في كتبه على السنة رسله ، والتوفيق بين العلم والعقل والدين ، وان يكون استمداداتها من مجموع التراث الاسلامي على الاسلوب الذي سلكه السلف، مع تجديد في الطرق ، وتطبيق لاساليب البحث الجديد ، واما الفلسفة فيجب ان تكون حرة من كل قيد ، ولكن يستحسن ان توجه الى دراسة الكون واستكناه نواميس الله فيه ، اي تكون في المنطقة التجريبية العلمية ، فاذا كان ما فهمناه حقا ، وهو ما يشهد له تاسف عبده على اشتغال الفلاسفة بمسائل المغيبات ، فانه يكون قد وضع ميزانا جديدا لتحديد مناطق التجربة العلمية ، من حيث اثرها في التوجيه الانساني والتنظيم السياسي والاجتماعي لتكون فلسفة ايجابية تقوم على ما يرتسم في الفكر من آثار المكتشفات ، ومناطق الفكر المجرد عن العوامل الخارجية ، والذي لايهتم بغير اكتناه الذات الانسانية من حيث خوالجها النفسية ، وسبحها في عالم اعلى لالتقاط الالهامات عن طريق التامل والتبصر والاقتداء باقوال واعمال الرسل واتباعهم ، فنحن ازاء فلسفة لا تعترف بالعقل المحض ، وانما تعترف بعقل يستمد اشعاعه من الغيب ، وهو علم الكلام ، وعقل يستمد من الموجودات وهو الفلسفة .

ومهما يكن الامر ، ففتح الذهن قبل كل شيء ، وتجديد اساليب الدراسة والبحث وتكييفها بالكيفيات العصرية ، ذلك ما يجب البدء به وذلك ما دعا اليه عبده في كل كتاباته .

وهذا ما يؤدي بنا طبعا الى دعوته للاجتهاد في الشريعة ، كما دعا للجهد في العقيدة، فقد صرخ صرخات متوالية ضد اولئك العلماء الجامدين الذين كانوا يدافعون عن فكرة التقليد ، ويؤمنون باقفال باب الاجتهاد ، وعبده لم يسلك في هذا الباب غير ما سلكه المصلحون السلفيون من قبله ، منذ عهد المصلح الاكبر شيخ الاسلام ابن تيمية ، وقد ردد الشيخ رشيد رضا افكار عبده في هذا الموضوع في محاورته بين المجتهد والمقلد ، ونحن لا نريد ان نطيل في هذا الموضوع لانه اصبح امرا مفروغا منه اليوم ، وانما نريد ان نبين ان عبده نفسه اعطى كثيرا من القدوة في احترام المذاهب الاسلامية على اختلاف انواعها ، واقتباس آرائه منها بعد عرضه على محك الكتاب والسنة ومقاييس الاصول ، ولكن الناحية المهمة في هذا الموضوع هي الكتب التي كانت بين يدي المسلمين والتي اصبحت وحدها مصدر ما يتجهون اليه من آراء ومبعث كل عقبة في سبيل الاصلاح ، ولذلك احب ان ان يوجه اتباعه لدراسة القرءان والسنة ، وان يعمل على احياء كثير من الكتب التي الفها السلف في عهدهم الاول ، لكي يرى المسلمون بينها امثلة حية للعالم المجتهد والباحث النظار ، ولكن اقفال باب الاجتهاد في العصور الماضية لم يكن الباعث عليه مجرد الجمود كما يتراءى لاول نظرة ، بل كان في جملة البواعث عليه هذه الفوضى في النظر وفي الفقه التي لا بد منها لكل حرية مرسلة دون تنظيم او توجيه، ولازالة هذه الشبهة وآثارها يجب الاهتمام بتربية المجتهدين وتكوينهم وتخريجهم من معاهد قادرة على ان تتيح لهم الفرصة التي يستحقون معها الارتفاع لمقام اولائك الائمة الاعلام الذين هم نجوم الاسلام .

وهذا ما دعا بعبده الى الدعوة لتجديد اساليب الدراسة في الازهر وفي المعاهد الدينية ، وحينما يئس من الوصول الى تحقيق فكرته حاول العمل على تاسيس كلية خاصة او مدرسة للدعوة والارشاد تلك الفكرة العزيزة على رشيد رضا .

وقد اقتنع بعد ذلك ان هذه المسائل كلها لا يمكن ان تتم ، ما دام هنالك عائق من جمود المسلمين وعلمائهم وخضوعهم لاصحاب الطرق والخرافيين الذين يمنعونهم من كل نظر او بحث ، او اتصال بغير ما وجدوا عليه اشياخهم من الكتب العتيقة والافكار الساذجة، ومقاومته لهؤلاء وصيحاته في وجوههم اوجبت له الاتهام بالكفر والزندقة ، الامر الذي لم يتح له الفرصة الصالحة لتحقيق الكثير من ءارائه ، على اننا ونحن نتحدث عن هذا الجانب من حياة عبده ، يؤسفنا ان لا نرى في مصر ولا في الشرق العربي أثرا كبيرا لهذه الدعوة الصالحة

دعوة التحرر من الخرافات والعودة للعناية بعلوم الدين مجددة منقحة ، بل ان الايام تسير فى هذه البلاد بعكس ما كان يرمي اليه عبده ، الى التحلل من الدين ، او الجمود على الخرافات التى الصقت به ، **اي الجمود او الجحود** ، وقد حاربهما الاستاذ الامام معا ، ودعا الى التغلب عليهما بالاصلاح والتجديد .

رجع عبده الى ميدان الدرس ، مكتفيا بتكوين تلامذة رجا منهم ان يكونوا المحققين لفكرته من بعده ، فاخذ يفسر القرءان ، ويجدد فى اساليب عرض ءاراء المسلمين فى كل مسائله ، ويبعث على التبصر باحكامه وآياته ، ولم يكن عبده يهمه من هذه الدراسة غير خرق العادات التى سار عليها الازهريون من عدم دراسة كتاب الله ، والاكتفاء بتلاوته ، وقد استطاع ان يوجه النظر للقرءان ويحمل كثيرا من تلامذته على كتابة دروسه ثم التوسع فى التفسير على طريقته ، فخرجت من ذلك تفاسير مطولة ومختصرة لا يعنيني ان اتحدث عن الطريقة التى اتبعت فيها ، ولا عن الآراء التي عرضت لاصحابها ، لان ذلك موضوع آخر يحتاج الى بحث وتطويل ، ولكن الذي يعنيني من هذا هو ان عبده لم يكن يخضع لنظريات المفسرين من قبله دون بحث او نظر ، كما انه لم يكن يقول فى القرءان برايه ، وانما كان يبذل الجهد للبحث عن تفاسير السلف واختيار احسنها او التوسع فيها والاستدلال باللغة ودقائقها على ما تعنيه الآيات الكريمة ، وكان يحاول بقدر المستطاع ان يوفق بين ما وصل اليه عمله من مظاهر العلم الحديث ، وبين ما جاء فى الآيات القرءانية ، واذا كان التوفيق قد خانه احيانا فان ذلك لا ينقص من قيمة الجهد الذي بذله ، والحق انه هو نفسه لم يكن يتاخر عن الرجوع فى النظريات التى يناقشه فيها امثاله من العلماء المخلصين ، متى ظهر له وجه الحق فيها ، فقد تراجع عن انكار جواز (المسالة) لمنافاتها للعزة الاسلامية ، فلما ادلى له بقوله تعالى : (والذين فى اموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) انصف واعترف بالحق فى التفسير الذي كتبه بنفسه لجزاي عم وسبح ، وحينما ناقشه الشيخ محمد محمود الشنقيطي فى مسالة البحث فى خلق القرءان ، وانها ليست من مذهب السلف ، امر بحذف ما كتبه فيها فى الطبعة الثانية ، فنقل عنه الشيخ رشيد فى تعليقه على هذه الطبعة ص 47 من الرسالة ما يلي : (وقد حذفنا من هذا الموضوع نصف صفحة من الرسالة فى مسالة الخلاف فى خلق القرءان ، عملا بامر المؤلف ، اذ كتب بخط يده فى طرة نسخته : (فى الطبعة الثانية يحذف القول فى خلق القرءان) وبين لنا السبب فى ذلك فى الدرس فقال : انه التزم فى الرسالة مذهب السلف ، وهذه المسالة من البدع التي ليست من مذهبهم ، وكان الذي ذكره بذلك الشيخ محمد محمود الشنقيطي ، فاذعن وذكر ذلك فى الدرس) وانه لمن الغريب ان يقف صديقنا الاستاذ الكبير محمد ابو زهرة موقفا آخر ، اذ ياتي فى القرن الرابع عشر ليؤيد مذهب القول بخلق القرءان اثناء بحثه عن هذه المسالة فى كتابه عن الامام احمد بن حنبل رضى الله عنه ، كما يؤيد جواز القول فى القرءان بالراي فيما كتبه عن هذا الموضوع فى تاليفه النفيس عن الامام ابن تيمية ، وكل جواد يكبو ، وكل سيف ينبو .

كان من وجوه الدفع للشبهات عن الاسلام ، ان بين عبده وواصل البيان ، ان القرءان ليس مدونة علم ولا تاريخ ولا نحو او صرف ، وانه كتاب غايته الهداية ووجهته الدلالة ، وان ما يذكر فيه من قصص او تاريخ او غير ذلك لا يرمي لاكثر من الارشاد واقامة الحجة والتذكير بسنن الماضين ، ولم يكن عبده يقصد الى ان هذه الامور المذكورة فى القرءان قد لا تكون موجودة ، فهذا ما لم يخطر بباله ابدا ، وانما كان يقصد الى ان ذكرها لم يكن الا عرضيا يقصد منه التنبيه لسنن الله فى خلقه وتذكير المسلمين بما اصاب من قبلهم من عظات وما حل بهم من مثلات ، فحينما يقص علينا انباء بني اسرائيل وموقفهم من انبيائهم وما ارتكبوه فى ذلك من ذنوب اجتماعية ، وما عاقبهم الله به من ذل وتشريد ، كان يحدث عن امر واقع ، ولكن يريد ان نتعظ به لئلا يصيبنا ما اصابهم فنهلك كما هلكوا .

كان عبده يريد ان ينبه الى ان اسلوب ابي حيان فى النحو ، وطنطاوي جوهري فى العلوم الطبيعية ، وامثالهما ، ان كان يعد من طرائف العلم بالقرءان ، فان كتاب الله يجب ان يقرا ويدرس لاستخلاص ما فيه من حكم وآيات ترفع من شان الفرد والمجتمع من ذات الصدع الى ذات الرجع ، اما ان نشتغل عنه بدراسة الالفاظ فحسب ، دون اكتناه ما وراءها، فهو ما لا يتفق مع قداسته والقيمة التى يستحقها فى نفوس المؤمنين به

ولكن عبده كان متاثرا قطعا اكثر من هذا ، بالشبهات التي عرضها رينان على التوارة التي تشتمل على تواريخ تختلف عما هو معروف ، فبعد ان عرض لهذه الشبهة ، بين الميزة التي فى القرءان ، اذ انه لم يذكر تواريخ معينة الا فى موضع واحد ، اذ كان يناقش اليهود والنصارى فى امر ابراهيم (وما انزلت التوراة والانجيل الا من بعده افلا تعقلون) واما ما عدا ذلك فكلها اخبار للرسل والانبياء غير محددة الآجال ولو هذا التحديد الواسع .

واذا كان موقف عبده واضحا بينا ، وصحيحا نافعا فى دفع اية شبهة تعرض فى الموضوع ، لانه يقوم على اساس عدم مناقشة ما ورد فى القرءان ، لانه النص المهيمن على كل ما عداه ، سواء كان فى الكتب المقدسة الاخرى او غيرها ، فانه وياللاسف فهم على غير وجهه، وكان تمهيدا لمزاعم الاستاذ الخولي فى كتابه (الفن القصصي فى القرءان) حيث انه زعم ان وجود النبأ فى القرءان لا يستلزم صحته ، وهذا ما لا يتفق مع قداسة القرءان ، واني لمتيقن انه لو عاش الاستاذ الامام لكان فى مقدمة المنكرين عليه والرادين لشبهته بما تستحقه من

عناية وبيان ، وقد بين رشيد رضا في غير موضع من التفسير ان القصص الموجودة في كتاب الله ليست صحيحة فقط ، بل هي الحجة الوحيدة الباقية على وجود الانبياء والمرسلين ، وما اشتملت عليه كتبهم او بقايا كتبهم من اخبار وآثار .

ولكي يثبت عبده ايمانه الكلي بما ورد في القرءان ولو كان متعارضا مع اية نصوص اخرى من روايات اهل الكتاب او غيرهم في الكتب المقدسة او غيرها ، هاجم عبده في غير هوادة الاخبار والتواريخ القديمة ، مبينا عدم ثبوتها امام التمحيص ، ومؤكدا ان نزول القرءان كان بداية تاريخ جديد للانسانية (انظر تفسير المنار . ج 2 — ص 471 — 472 — و ج 1 ص 347) .

وهكذا يؤمن الشيخ واتباعه بما نص عليه القرءان من تحريف اهل الكتاب لما انزل عليهم من ربهم ، ووضع الكلم في غير مواضعها تحريفا حقيقيا ، ولكن ما هي حقيقة التحريف الذي وقع فيه اهل الكتاب ؟ هل تغيير النصوص المنزلة بالحذف والزيادة فيها ، ام هي الخروج عن معانيها المقصورة بتاويلات بعيدة عن مقاصدها ؟ اما اغلب المسلمين فيعتقدون المعنى الاول ، اي وقوع التحريف الحقيقي في كتب الله ، واما ابن خلدون فانه نهج في الجزء الاول من تاريخه منهجا لا نعلم له سابقا ، وهو استبعاد ان يكون الاحبار والرهبان قد غيروا الفاظ كتبهم او حذفوا منها او زادوا فيها ، وانما كل ما هنالك انهم اعرضوا عنها وتأولوها بمحض الراي الذي لا يستند لدليل ، اما عبده فيظهر على ما يحكى عنه الشيخ رشيد رضا في (ج 2 من التفسير ص 49) انه فيما يخص الانجيل كان يتهم الحواريين بانهم لم يحفظوا ما قاله المسيح على الوجه الصحيح، وفيما يخص الكتب الاخرى كان يميل الى ما قاله ابن خلدون .

ولكن تلميذه رشيد رضا بين غلط الاستاذ وغلط ابن خلدون في هذا الاتجاه ، وحقق في غير موضع من التفسير ، ان التحريف واقع حقيقة لا مجازا ، وفيما كتبه الامير شكيب ارسلان في تعاليق طبعتنا على ج 1 من تاريخ ابن خلدون ما يغني عن اعادة الكتابة في بيان احقية الشيخ رشيد في موقفه من نظرية استاذه ، وقد اوضح رينان بشواهد لا تقبل النقض ، ان فصولا كثيرة اضيفت للكتب المقدسة في تواريخ مختلفة ، وان فصولا اخرى لم تحذف الا منذ بضع مئات من السنين بقرار من البابا حينذاك .

ولكن عبده على كل حال يقاوم الاسرائيليات ما استطاع ، وينعى باللوم على كثير من المفسرين الذين يتبعون انباء بني اسرائيل ويطبقون عليها القرءان ، ويقف رشيد رضا موقفا اشد، من كعب الاحبار وامثاله، ممن يعتقد انهم قاموا بدور فعال في تسرب التاويلات المبنية على الثقافة الاسرائيلية لكتب التفسير ، ولوضع كثير من الاحاديث التي ما كان يقصد منها غير افساد الدين على المسلمين .

انما يجب ان نعترف بان المدرسة العبدية وقعت أيضا فيما فرت منه ، فتسرب الى رجالها كثير مما احب ان اسميه بالاسرائيليات الجديدة ، ولذلك فمن الواجب على انصار السلف ، ان يحذروا الاستمرار في هذه المزالق ، والتجرد المطلق من كل تاثيرات خارجية في اثناء دراسة كتاب الله واصول الاسلام ، لانه لا يضرنا من خالفنا اذا كنا متيقنين بان ما نقول به هو من صميم الدين ، وسواء اولنا او فوضنا ، جددنا او اقتدينا ، فلا ينبغي ان يكون لنا على ذلك باعث غير الرغبة في البعث الاسلامي واصلاح امر المسلمين في دينهم ودنياهم .

ان التجديد في التقليد اضر علينا من الجمود في تقليد من سلف ، واذا كنا نؤيد عبده في الدعوة الى الثقة بالعقل ، وفتح باب الاجتهاد في كل شيء ، فانا نريد ان نسير على ذلك المنهج ازاء كل راي وكل نظرية ، خصوصا النظريات الاجنبية فيما يخص الاسلام والمسلمين ، لا سيما بعد ان عرفنا معرفة قاطعة سوء نوايا اغلب الباحثين الاروبيين حين يواجهون امر الشرقيين الذين يكادون يفلتون من استعمارهم وهم لهم محاصرون .

ان البحث في هذه القضايا يثير البحث في وسائل الاثبات التاريخي ومناهج الرواية ، وهل الطريقة الاسلامية المستندة على معرفة الرجال وتواريخهم وقيمتهم في الصدق والكذب وانواع العلل ، هي اسلم الطرق ، ام هنالك غيرها من الوسائل الجديدة التي تقوم على التحليل ومحاولة جمع الظروف التاريخية ومقارناتها ومقابلاتها ببعضها؟ اما عبده فانه لم يكتم اعجابه الكلي باساليب المحدثين والمفسرين والاخباريين المسلمين، وان كان في الوقت نفسه لم يتاخر عن الرغبة في اتباع الاساليب الحديثة في التحليل والتعليل ، والحق ان التحاليل الغربية على قوتها وعلى ما تعطيه من مساعدة في فهم التاريخ وتفسيره ، وما تمنحه من مقدرة على الاستفادة من مختلف المستندات التاريخية ، وما تربيه من ملكة الملاحظة والاستنتاج الشخصي ، على الرغم من كل ذلك فانها لا يمكن ان تعطي الدلالات القاطعة على صدق ما ترويه او تستنتجه ، وكثيرا ما تختلط فيها القوة الخطابية وبراعة الاسلوب ، بالحقائق التاريخية ، اما اساليب الاخباريين المسلمين فهي لو نقحت وهذبت لكانت افضل الوسائل لاثبات الوقائع على الوجه الصحيح، واعظم دليل على ذلك ان ملة من الملل ، وامة من الامم ، لم تحتفظ من اخبار انبيائها ومؤسسي دياناتها وكبار الشخصيات فيها بما احتفظت به الامة الاسلامية في كل النواحي التي كان يهمها امرها ، ولولا تلك الطرق الرشيدة لما اصبح القرءان حجة ثابتة لاينازع احد ولا يماري على انه هو الذي كان يتلوه محمد بن عبد الله على اصحابه ، ولما اصبحت الاحاديث المتعلقة بالاصول والمسائل الضرورية ثابتة التواتر الذي لا يقبل الدفع ، بينما الصحيح من اخبار الآحاد واضح الثبوت بالقدر الذي يحتاج اليه موضوع الاحتجاج به ، وهو غير

المعتقدات ، ولم تكن الرواية في الواقع الا لاعداد المواد الصالحة الراسخة للذين يريدون ان يبحثوا ويستنتجوا، كل بحسب ما يتخصص فيه ، فكأن المسلمين اهتموا قبل كل شيء بأن يضعوا امام الباحثين المستندات الصحيحة التي تفسح امامهم الدراسة المتينة للنصوص الواردة ، وبيان ما يمكن ان يكون فيها من تعارض او توافق ، ولولا ما اصاب التراث الاسلامي من احراق واتلاف بيد اعداء المسلمين وخصومهم ، لكانت المكتبة الاسلامية اغنى مكاتب الانسانية من عداد المستندات ، وان كانت رغم ذلك ما تزال اقواها في وسائل الاثبات .

العناية بمناهج السلف في الرواية الى جانب العناية بالتحليل والتعليل ، كلاهما شيء ضروري لاحياء آثار الاسلام وكتابة تاريخه بالطريق الذي يحتاج اليه العصر، وتلك هي الخطوة الاولى في اعادة ثقة المسلمين بانفسهم وثقة العالم بهم ، وتلك هي السبيل التي تمهد لهم صنع تاريخ جديد مجيد .

النظر ، والقرءان ، والسنة ، كلها في راي الشيخ عبده وسائل ضرورية للمعرفة الاسلامية ، وللبحث الاسلامي ، ولدفع الشبهات التي يعرضها المخالفون على القرءان وعلى الاسلام ، اما العلم ، بالمعنى الضيق الذي اصبح يدل عليه في هذا العصر ، فقد بين عبده ضرورة الاعتناء به ، واتقانه بجميع فروعه ، وقد اوضح تسامح المسلمين في جميع عصورهم مع الذين كانوا يختصون فيه ، ولكنه الح في البيان في دروس التفسير، ان القرءان ليس كتابا منزلا لتوضيح الحقائق العلمية في الطبيعيات والرياضيات مثلا ، وعمل كل جهده لتبيين ان ما هو وارد في القرءان ورد للاتعاظ ، وانه ينطبق على احدث ضروب المعرفة ، وان هذه المطابقة خير دليل على صدق القرءان ونزوله من السماء ، لانه ورد على لسان نبي امي، في امة امية، وعصر ابعد ما يكون عن عصور المعرفة الحديثة ، ولكنه يقرر انه اذا تعارض ما في القرءان مع ما يقرره العلماء ، فيجب مسايرة العلم مع الايمان بصدق القرءان ، وبان البحث لابد ان يؤدي الى معرفة الحقيقة (كتب الله لاغلبن انا ورسلي) ويؤيد هذا بذكر كروية الارض التي كانت تدل عليها ءاية (يكور اليل على النهار ويكور النهار على اليل) والتي كان الجغرافيون العرب يتاولونها ليوافقوا راي العصر القائل ببساطة الارض .

ويظهر مجهود عبده وتلميذه رشيد رضا واضحا جليا في تأويل الآيات القرءانية على الطريقة التي تتفق مع الواقع العلمي ، وتحفظ للقرءان نظمه اللغوي ومعناه الديني ، ولنضرب لذلك مثلا بالآيات التي تنص على ان الله خلق السموات والارض في سبعة ايام ، فقد بين ان اليوم في اللغة هو القطعة من الزمان ، وبذلك اجاب عن شبهة كون الايام لم تعرف الا بعد ان خلق الكون ، واستدل لذلك بقوله تعالى (وان يوما عند ربك كالف سنة مما تعدون) وبين كيف ان العرب يطلقون الايام على الحروب والوقائع فيقولون يوم كذا ، ولو كانت فيه شهور من الحرب او دهور .

اما عن شبهة السموات السبع ، فقد بين ان مفهوم العدد لا يعتبر ، ورجح ان يكون المقصود منها مناطق السيارات السبع ، مع العلم بان القدماء لم يكونوا يعرفون اكثر من خمس ، وانما اكتشف هرشل في القرن الثامن عشر السيارة السادسة ، ولم تكتشف السابعة الا في اواسط القرن التاسع عشر ، وهكذا يكون القرءان قد اتى بمعجز ، لانه عرف من اخبار السموات ما لم يعرف المختصون في النجوم الا في هذا العهد الحديث ، على انه احيانا ياتي بتعبير علمي لبعض الظواهر ، ليقرر عدم استحالة وقوعها فقط ، وذلك ما فعله في محاولته لتفسير الطير الابابيل التي رمت اصحاب الفيل بحجارة من سجيل ، قائلا : انها جرثومة الجدري ، وما حاول ان يبين به رشيد رضا معجزة موسى في مروره البحر وغرق فرعون ، بوقوع المد والجزر في تلك الساعات ، ونحن لا نوافق الاستاذين على مثل هذا الاغراق في تفسير ما ذكره القرءان على انه من قبيل المعجز ، ويكفي ان نثبت وقوع الامر الخارق من اول مرة ، لنتحرر من الحاجة للتحمل في تفسير الشبهات وتقريبها لعالم الحس ، وليس يعنينا ان يكفر من يشاء اذا كان ايمانه لايتم الا بالتنازل عن جزء ولو يسير من الدين ، وهو من الممكنات التي لا ينازع فيها عقل ولا علم صحيح .

ولا يهمل عبده كما لا يمكن ان يغفل اي واحد يريد اصلاح امته عن طريق القرءان ، مسائل الاجتماع والنفسيات ، وهذا هو الفصل الذي يدل فيه من الجهد ما يستحق تثبيت دعائم الاسرة وتقويم الاخلاق ، ورد شبهات المخالفين بتبيين تفوق الشريعة الاسلامية على غيرها في سائر هذه الميادين ، ودخل في مناقشات كثيرة عن تعدد الزوجات وعن التسري والاسترقاق ، والربا وغير ذلك من المسائل التي اعتاد الاجانب ان يسردوها كلما حاولوا نقد الاسلام والمسلمين ، ثم دافع عن الشبهات التي تعرض لقضية زواج النبي عليه السلام بزينب بنت جحش ، وامر تعدد الزوجات ، وغير ذلك مما نجده مفصلا في تفسير المنار وفي مجموعة المنار نفسها ، ولو اردنا ان نفصل جدله في هذا الموضوع لاحتجنا الى صفحات عدة ووقت طويل .



محمد رشيد رضا

ولنرجع بعد الى موقفه من شبهتين عظيمتين : الاولى ما يزعمه الاوربيون من ان الاسلام قام بحد السيف ، وان الجهاد انما شرع لنشر الدين الجديد بطريق القوة ، وذلك ما يتنافى مع الحرية الاعتقادية

التي تنادي بها الشعوب اليوم في كل انحاء الدنيا . وقد بين الاستاذ الامام ومن قبله استاذه جمال الدين ، ان الاسلام منع الحرب كلها ولم يبحها الا في حالتين : واحدة وهي الحالة التي يفتن فيها الاجانب المسلمين عن دينهم او يكرهونهم على الكفر او على عدم الدعوة الى الله بالطرق السلمية . والثانية ان يباجه غير المسلمين بلاد الاسلام . ومع ذلك فالله تعالى يامر نبيه بان يجنح للسلم متى جنح لها المخالفون . فالحرب اذن ضرورة تقدر بقدرها ، لا تجوز الا في حالة الدفاع ، وخاصة الدفاع عن حرية الاعتقاد وتثبيت المبدأ القرآني « لا اكراه في الدين » . ويستدل على ذلك بقوله تعالى ايضا : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله » (ج 4 من التفسير ص 62) وقد اوضح عبده في كتاباته المختلفة ومن بعده رشيد رضا وغيره من مريدي الاستاذ الامام ، ان الاسلام انتشر بنفسه وبمبادئه الانسانية النبيلة ، واذا كانت وقعت حروب في بلاد العرب وما جاورها من اقاليم الفرس والروم ، فان احدا لا يشك في ان اكثر المسلمين في آسيا دخلوا الدين الجديد بطريق الدعوة والارشاد . كما بين في رده على صاحب الجامعة انه لم تقع حروب بين المسلمين من اجل النظريات الدينية المختلفة ، على عكس ما وقع في تاريخ اوربا وغيرها من البلدان التي دانت بغير الاسلام .

اما الشبهة الثانية فهي قضية الخلافة والجمع في الحكم بين السلطتين الدينية والزمنية . وقد اجاب فيها عبده فرح انطون بانه يستغرب امكان الفصل . ويتساءل : « كيف يسوغ للسلطة المدنية ان تتغلب على السلطة الدينية وتقف بها عند حدها . والسلطة الدينية انما تستمد حكمها من الله ، ثم تمد نفوذها بتلك القوة الى اعماق قلوب الناس ، وتديرها كيف تشاء . نعم هذا الفصل سهل ، لو كانت الابدان التي يحكمها الملك يمكنها ان تاتي اعمالها مستقلة عن الارواح التي تحيا بها . والارواح كذلك تاتي اعمالها بدون الابدان التي تحمل قواها »

ومعنى هذا انه اذا كان المقصود من الفصل هو توزيع الاختصاص مع الاعتماد على الدين في كل التدابير والتصرفات ، فلن يغير ذلك شيئا من الواقع ، وان كان المقصود الفصل الحقيقي فالمفروض ان الحكومة ملكية او جمهورية انما تتركب من اشخاص مواطنين ، وهؤلاء المواطنون لا يمكنهم الا ان يكونوا مؤمنين بدين ما . فكيف يمكنهم ان يتحرروا في تصرفاتهم من عقائدهم وكيف يمكنهم ان يقفوا موقف الحياد في اعمالهم .

ويزيد عبده فيوضح ان المسيحية نفسها لا تقول بهذا الفصل كما يزعم المسيحيون اليوم ، اما فقرة الانجيل التي تقول : « اعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله » فانها لا يراد بها الفصل بين السلطتين الدينية والزمنية ، وانما معناه « ان صاحب السكة التي تتعاملون بها ، اذا ضرب عليكم أن تدفعوا شيئا فادفعوه له . اما قلوبكم وعقيدتكم وجميع ما هو من الله ، وعليه طابع صنعته ، فلا تعطوا منه لقيصر شيئا . جامعة ص 140 » .

اما حين رد الاستاذ على هانوتو فانه اكتفى ببيان محاسن الاسلام وسرعة انتشاره ، وكيف ان العهد الذي تمسك به المسلمون ، كان افضل عهودهم واحسنها . وذلك ما يدحض شبهة ان يكون النظام الاسلامي هو الذي اوقع المسلمين في هذا الانحطاط .

زعم هانوتو ان انقلابا عظيما حصل في بلد اسلامي فصلت فيه السلطة الدينية عن السلطة السياسية بدون جلبة ولا ضوضاء . وهو القطر التونسي الذي وضعت عليه حماية مؤداها احترام النظام السابق على الفتح ، وصيانة القوانين والعادات من المساس ، والمحافظة على مركز الباي . قال هانوتو « وقد بالغنا في ذلك ، بحيث تمكنا بواسطة ما ادخلناه من التعديلات الطفيفة شيئا فشيئا ، واجريناه من الرقابة على الامور الادارية والسياسية ، من التدخل في شؤون البلاد والقبض على ازمتها بدون شعور من اهلها » ص 26 — 27 — الاسلام والرد على منتقديه) وقد اطنب هانوتو في التبجح بالعمل العظيم الذي قامت به فرنسا في تونس برضا اهلها .

وليت شعري ماذا كان يقصد هانوتو بفصل الدين عن الدولة في تونس الا ان كان سيطرة المراقبين والمديرين والضباط الفرنسيين على جميع انواع الولايات واستغلال اسم الباي وموظفيه في اصدار بعض المراسيم التي يعرضها المقيم العام باسم حكومة فرنسا . صحيح ، ولكن هذا لم يتناول الجوانب الاقتصادية او السياسية فقط ، ولكنه تناول كل الجوانب ، لان الهيمنة الفرنسية مسلطة على الاوقاف الاسلامية ، وعلى القضاء ، وعلى كل فروع الدولة ، ولكن عبده لم يدخل في تفاصيل الرد على هانوتو في هذه النقطة ، مكتفيا باخذ اعترافه برضا التونسيين حجة على تسامح المسلمين مع المخالفين لهم . والحق انه مسلك غريب ما كان يجدر بعبده . لان المسلمين في تونس في ذلك الوقت كانوا مرغمين بالحديد والنار على السكوت . ومع ذلك فانهم لم يتاخروا عن المقاومة للمستعمرين كلما سنحت لهم السبل وكان الواجب على الاستاذ الامام ان يسال هانوتو : لماذا تركت فرنسا في الجزائر شؤون الديانة الاسلامية تحت نظر الحكومة الفرنسية ، ولماذا لم تعامل المسلمين بما عاملت المسيحيين واليهود المقيمين في الجزائر ، فتترك لهم تدبير كل ما يرجع للطائفة الاسلامية !

ولسنا نحن الآن بصدد البحث في مبدأ فصل الدين عن الدولة ، وهل من صالح المسلمين ان ينهجوا فيه منهج الغربيين كما فعل الاتراك . فان هذا موضوع طويل الذيل يحتاج الباحث فيه الى تعمق في البحث واطالة في البيان ، اما المبدأ فقد قررناه في كتابنا « النقد الذاتي » فليراجعه من شاء .

لكن الذي لا يلزم تاخير بيانه هو ان فصل الدين عن الدولة او وصلهما في بلد ما ، لادخل له في تقدم تلك البلد او انحطاطها ، لان المسالة مسالة تنظيم ، والاخلاص في تطبيق الانظمة والعدل في الحكم ، لجعلها صالحة ولو كان فيها بعض النقص ، على اننا نستطيع ان نقول : ان وضع قضية فصل الدين عن الدولة على هذه الصورة غير صحيح من اصله ، والواجب ان يقال اولا: هل يمكن ان تحكم الامة بقانون ام لا ؟ ولا شك ان العقلاء قاطبة سيجيبون بان الحكم يجب ان يكون طبقا لقانون ما ، لا يحكم فرد او افراد بحسب هواهم وامرهم ، ومتى سلمنا بهذه الحقيقة ينبغي ان نسال ؟ هل يجب ان يكون هذا القانون مستمداً من الدين ومندرجا تحت اصوله العامة ، او يجب ان تحكم البلاد باحكام عرفية يتواضع عليها الناس ، وحينئذ يسهل ان نعرف جواب المتدينين من كل امة والمسلمين بصفة خاصة ، لانهم يقراون في القرءان (وليحكم اهل الانجيل بما انزل الله فيه ، ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الفاسقون) وحكم الله في اهل التوراة والانجيل هو حكمه في اهل القرءان (واحكم بينهم بما انزل الله ولا تتبع اهواءهم واحذرهم ان يفتنوك عن بعض ما انزل الله اليك) .

اما الشبهة التي ما زال الاوربيون يرددونها ضد الاسلام، ويجعلونها سببا في تاخر المسلمين واستسلامهم فهي ايمانهم بالقضاء والقدر ، وقد اوردها فرح انطون وهانوتو ورينان وغيرهم ممن كتبوا في ذلك الوقت او قبله او بعده من غير المسلمين ، وقد زعم هانوتو ان المسيحيين ارتقوا بايمانهم بان العبد مختار ، بينما انحط المسلمون بسبب اعتقادهم بان العبد مسير لا مخير .

وقد اوضح عبده خطا وضع المسالة من اساسها ، فبين ان الخلاف في امر القدر واقع بين المسيحيين كما هو واقع بين المسلمين ، وان الاولين اختلفوا في هذا الموضوع قبل ظهور الاسلام ، واستمر بينهم الى هذه الايام ، ومن الجبريين النصارى الذين ذكر بهم عبده في اتباع القديس طوماس والدومينيكيون ، وذهب بعيدا الى القول بان الفلاسفة اليونانيين الذين كانوا يقولون بان الاشياء توجد بالاتفاق والصدفة ، ولا يحتاج الممكن في وجوده الى سبب ، ادخل في باب الجبرية من اسناد كل امر الى خالق الكون . (الاسلام والرد على منتقديه ص 36) .

ثم شرح عبده بعد ذلك عقيدة الاسلام ، وبين الخلاف القائم بين الجبرية والقدرية من جهة ، وبين الاشعرية والماتريدية من جهة اخرى ، ويبدو ان الاستاذ كان يقول بمذهب الاختيار على الطريقة الماتريدية وامام الحرمين من الاشعرية ، وهو مذهب وان لم يقل به اغلب المسلمين فهو على كل حال في اطار المذاهب السنية ، وخير ما يقرا في مسالة القدر قوله تعالى : (ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ، ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء ولتسالن عما كنتم تعملون) .

لا نريد ان نخوض مع الخائضين في امر القضاء والقدر لان ذلك مما عجز عن حل مشكلته الكثيرون ، ولكن الذي يهمنا الآن هو توضيح الاستاذ الامام كيف ان اليهود لم يمنعهم ايمانهم بالجبر وعدم الاختيار ، من الجد والاجتهاد في كسب المال ، فلماذا يمنع الايمان بالقدر المسلمين من الرقي او النهوض ؟ ويمكننا ان نزيد عليه ايضاحا يخص المسلمين ، وهو : اذا كان الايمان بالقدر قد منع الاشعريين من المسلمين من النهوض واوجب عليهم الخمول ، فلماذا يمنع الايمان بالاختيار الزيدية اليمنيين واضرابهم من الطوائف الاختيارية من المسلمين ، من الوقوع في الانحطاط الذي وقع فيه اخوانهم ؟ .

اما الشيخ مصطفى صبري فقد نبه الى ان الكل لم يفهم ان المراد من افعال العباد التي هي محل النزاع بين المذاهب هي افعالهم المقدورة الصادرة عنهم فعلا ، لا ما هو اعم مما ارادوا ان يفعلوه فلم يتسن لهم (ص 32 ج 3 موقف العلم . . .) .

والحقيقة ان مسالة القدر عرضها النبي على الصحابة فلم يسالوه لم العمل ؟ بل قالوا فيم العمل ؟ اي انهم لم يخطر ببالهم بمفاجاة الخبر ان يقولوا انه لم يعد محل للعمل ؛ ولكنهم سالوا لاية غاية وفي اي سبيل يوجه العمل ؟ فاجابهم عليه السلام : اعملوا فكل ميسر لما خلق له .

اما شبهة الغربيين فهي : اذا كان الشيء مقدورا فلماذا العمل ؟ وهي في الحقيقة شبهة مصطنعة لا محل لها من الاعتبار ، والشيء الذي لم يتساءل عنه المسلمون ولا غيرهم ، هو : ما هو السبب الذي جعل المسلمين يرتفعون في وقت واحد في سائر المجتمعات التي تدين بالاسلام وفي كل اقطارهم ، ثم تاتي حقبة من الزمان فيسقطون هذا السقوط ، وينحدرون ذلك الانحدار ؟ لقد اختلفت نزعاتهم ومذاهبهم واختلفت وجوه الحكم فيهم كما اختلفت ديارهم والوانهم وظروف حياتهم وجوارهم ، فما هو الشيء الذي وحد بينهم في هذا المصير الحالي الذي هم فيه ؟ .

لا شك ان وقوع هذا الامر في وقت واحد في جهات متعددة ، دليل على ان هنالك سببا او اسبابا مشتركة كونته ، والواقع انه مهما يكن حال المسلمين الداخلية ، ومهما يكن ابتعادهم عن الدين ، فان الاسباب الصحيحة في نظرنا ، كانت خارجة عنهم وعن اختيارهم او جبرهم، انها في التطور الذي اصاب المجتمعات الاوربية التي كونت لها ظروف تاريخية اسباب الانتشار في ءافاق جديدة واستغلالها وابتزاز خيراتها ، ثم اكتشاف الآلة وما اعقبها من وفرة الانتاج وتضخم الثروات ، ثم بدء التآمر على تفكيك عرى الخلافة الاسلامية واحتلال بلاد المسلمين .

اذا كان ما وصل اليه الاوربيون ارتقاء حقيقيا فلنبحث عن اسبابه ، اننا لا نشك فى ان الغربيين ابعد ما يكونون اليوم عن المسيحية وعن جميع الديانات . اذا كان المقصود من الديانات ما تدعو اليه من عدل واخوة ومحبة بين الناس ، لقد كونت بريطانيا دولا عظيمة فى امركا وكندا واستراليا وغيرها ، فهل كونتها بطريق العدل والاخاء ام بطريق الظلم والاستعمار ؟ وهل توافق الديانات السماوية على ابادة الهنود واستيلاء الرجل الابيض على خيرات تلك المناطق الكبرى واسترقاق الملايين من السود واستغلالهم ووضعهم امام الانظمة السلالية التي تجعلهم احقر الناس واذل العبيد ؟ وهل تقدمت روسيا اليوم بفضائل المسيحية واحكامها ام بهدمها للكنائس ونبذها للاديان واضطهادها للمؤمنين ، وتصريحها بالكفر الصراح ؟

الحقيقة ان المسالة مسالة اخذ باسباب الحياة ونواميس الرزق ، ولو نظرنا للقضية من جانبها الخلقي، لما وجدنا فى اي دين او شرع اخلاقي ما يبرر اعمال الظلم التي تقع على الانسان وعلى الامم فى هذا العصر ، ولذلك فان الاديان لا تعترف بان هذا الواقع فى العالمين القديم والجديد رقي وتقدم ، فضلا عن ان يكون حضارة حقيقية ، ان الديانة لا تعترف الا بثقافة النفس ، وهي التي تكون الايمان بشرائع الخير والمحبة والاخوة بين الناس اجمعين ، ويمكن للامم والشعوب ان ترتقي ، ويمكنها ان تتمتع بضروب الحضارات ، مهما كانت انظمتها ودياناتها ، ولكن الثقافة الحق لا تكون الا للنفوس المؤمنة العادلة ، وان اشد بلدان المسلمين تاخرا لتحتفظ لحد الآن اكثر من غيرها، بخميرة الايمان الذي هو قيمة الانسان ومجده فى الارض وفى السماء (ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون) .

ايها السادة :

لقد اطلت عليكم فى هذا الحديث على الرغم من انني بذلت كل جهدي لاختصر الكلام واقتصر على الضروري فى الموضوع ، ولكن ما تحملت مسؤوليته من الحديث عن موقف عبده من الشبهات كان يستدعي مني اكثر مما عملت ، لانه ليس من المعقول ان امر بالشبهة المعروضة دون ان اشارك عبده فى دحضها او الاحظ تقصيره فيها .

وقد بقي علي الآن ، ان اتساءل معكم ، لماذا لم يعد فى علماء المسلمين واذكيائهم من يقوم اليوم بالدور الذي قام به عبده واخوانه من محاولة الرد على الذين ينتقدون الاسلام ؟ مع ان هؤلاء اليوم اصبحوا اكثر مما كانوا فى الماضي ، وانني فى كل يوم اطلع على عديد من المؤلفات او المقالات التي ينشرها الغربيون لتفسير ظواهر الكفاح القائمة فى بعض البلدان الاسلامية ، خاصة منها تلك الديار التي ما تزال ترزح تحت نير الاستعمار ، لقد كان من المنتظر ان يواصل مريدو عبده وانصار مدرسته المهمة التي بداها ، ويزيدوا عليه فيها باتقان وسائل العمل التي توفرت لديهم اليوم دونه بالامس ، بما يملكونه من شهادات عليا واتصال وثيق بالثقافات المختلفة

ولعل الجواب على هذا السؤال يستدعي الجواب على سؤال آخر ، عرضه جومبير فى خاتمة كتابه عن تفسير المنار ، فقد لاحظ ان خمسين عاما فقط مرت على موت عبده ، واقل من عشرين سنة منذ وقف تفسير المنار عن الصدور ، ومع ذلك فانه لم يعد احد من اوساط الناس يتحدث عن عبده او عن رشيد رضا او يذكرهما بخير او شر ، الا ما كان من بعض الاوساط الجامعية التي تذكرهما فى مناسبات تاريخية قليلة . ويقول جومبير : انه سال كثيرا من المصريين عن هذا السبب ، فاجابوه بان وقت عبده واضرابه قد فات ، وان ما يشتمل عليه المنار من معلومات موجودة فى الكتب القديمة التي اخذ الناس يطلعون عليها من اصولها اما رسالة التوحيد وامثالها فهي اشياء صغيرة بالنسبة لما يدرسه الناس فى الجامعات الكبرى اليوم

اما الدكتور هيكل فيعلل عدم اقبال الناشئة على عبده ، بان اساليبه غير علمية ، وبانه اتهم بالزندقة فاثر ذلك فى الشباب

والحقيقة ان هذه التعاليل ظلم ممن ذكروها لعبده ولرشيد ، ففضلهما على الثقافة الاسلامية وعلى التجديد الاسلامي شيء لا يمكن ان ينكر ، ولابد ان يذكر دائما فيشكر ، ولو ان الشباب اتجهوا اتجاها سلفيا اصح مما اتجهه الاستاذان لقبلنا تعليل هيكل ، اما وهم انحرفوا عن الدين ، فلم يبق لنا من تعليل الا ان اعراض المسلمين عن دينهم ، هو الذي يجعلهم يعرضون عن كل رجاله وآثارهم .

وهنالك مرض قديم ، وهو عدم مواصلة العرب لاعمال نوابغهم والاستفادة منها والزيادة فيها او النقص وادخال ما يلزم من التنقيح عليها ، ذلك عملهم مع ابن تيمية وابن عبد الوهاب ، وذلك عملهم مع ابن خلدون وجمال الدين وعبده ، واخرى ، هي ان المسلمين اليوم مسيرون بتوجيه الغرب واستعماره الروحي ، فليس لهم اي اختيار ليرجعوا الى نفوسهم ويجددوا امرهم ، وان التحرر من نفوذ الغرب فى الروح وفى الجسد لهو اول خطوة لاحياء مجدنا وتقدير اعمال عظمائنا .

وختاما اشكر السادة اعضاء جمعية العلماء على ان اتاحوا لي فرصة القاء هذه المحاضرة ، وارجو ان يوفقهم الله لخدمة السلفية حتى يعوضوا ما ضاع منها، فيصدق عليهم قوله تعالى : (فان يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين) .



6

بقلم الاستاذ الكبير
السيد المختار السوسي

اجلت بصري في غرفة مضيفي ـ ولم اكن اجهلها قبل ، وانما سنح لي ان ازداد بها معرفة ، بعد ما رايت غرفة اخيه الصوفي ، وما تحتوي عليه من الاثاث والكتب الصوفية ، وغرفة اخيه حماد المحتوية على صور تمثل التهتك والخلاعة ، وبضعة روايات غرامية بين شرقية وغربية جلها على نمط التهتك العريان ، فمددت نظري اجول به في انحاء المكان ، فابتسمت حين ارى اثاث المكان مزدوجا يجمع بين الذوق الشرقي والذوق الغربي ، ففي مشجب جبة شرقية وعلى آخر معطف فرنجي ، والمصحف على مرفع جميل في وسط صوان براق ، وفي مقابلته بضع صور لبعض عظماء من الشرقيين والغربيين ، من بينها صور جلالة الملك وولي عهده ، ومن بينها صور لويد جورج ، وويلسون ، وماركوني ، ثم قمت الى الكتب التي على المنضدة الموضوعة في احدى زوايا المكان ، فوجدت العربية والفرنسية متجاورة ، ففيها حياة محمد صلى الله عليه وسلم لهيكل ، ومقدمة التفسير لفريد وجدي ، وفتوحات العلم الحديث لصاحب المقتطف ، وبضعة اجزاء من تفاسير مطولة ، كروح المعاني ، واجزاء اخرى من تواريخ ابن خلدون ، وابن الاثير ، وكتب ادبية كابن خلكان ، ونفح الطيب ، وبعض روايات المنفلوطي ، وازاءها قاموس فرنسي ، ودائرة المعارف الفرنسية ، وبعض روايات لشكسبير ، ومؤلف دانتي حول الجحيم فقلت :

هكذا تمثل مكتبة كل انسان نفسيته بلا ريب .

ثم قمت الى خزانة الكتب الواسعة وهي مفتوحة الى ممر المكان الذي نحن فيه ، وهي على قسمين عربي وفرنجي ، فبقيت هناك ما شاء الله افتش عن كتب اراجع فيها بعض ما توقفت عليه ، وقد اعجبت بنظام الخزانة ، وان كان ذلك ليس بعجيب من امثال ابراهيم المرن على النظام في كل شؤونه ، فالنوم في وقته ، والاكل في وقته ، والصلاة في وقتها ، والاستراحة والتحدث الى اهله في وقتهما ، والخروج الى متجره والدخول منه في الدقيقة المعتادة لا يتقدمها ولا يتأخر عنها . وقد حمل كل من معه من عملة متجره ومن كتاب كنانيشه على ذلك حتى مرنوا عليه ، وكثيرا ما يتأسف على انه لم يستطع بعد ، أن يرى من امته كثيرين اتصفوا بالنظام ، مع ان النظام هو روح العمل دائما ، والنظام اصل من اصول الاسلام .

السيد العربي يحضر

فاجانا البواب ونحن في الاصيل، بان السيد العربي في الباب مع رفيق ، فبادرت مع رب الدار فلاقيناهما ، وكان اليوم باردا ، فجاء السيد العربي ملففا بـرداء وسلهام صوفيين ابيضين ، وفي رجليه خفان احمران من جلد ، وعمامته المكورة اكبر مما رايتها في سلا ، وقد اكتحلت عيناه ، وفي يده عكازة ملساء ، في اعلاها تفاحة حمراء ، فلم القي عليه طرفي وهو بهذه الهيأة المسترعية لكل ذي بصر ، حتى تذكرت زي اخيه حماد ، فانهما في الهيأة على طرفي نقيض .

قال الضيف بعد الجلوس :

ان هذا السيد الذي معي هو الفقيه العلامة المحقق المدقق المشارك الفهامة المؤلف سيدي احمد بن عبد السلام ، وهو والحمد لله من طبقة الرعيل الذي اخذنا عنه وان كان في مثلي سنا ، لان نجابته العظيمة اهلته ان يتولى التدريس قبل ان يكون ابن احدى وعشرين سنة ، فله حاشية عظيمة على توحيد ابن عاشر ، وقد امضى في تنقيحها جل عمره ـ يرى تلك السن في غاية التبكير في ميدان النجاح ـ وان كان الفها قبل ان يكون ابن احدى وعشرين سنة ، فهو نظير الاخضري المؤلف للسلم في السن ، ومثل الشيخ خليل في المثابرة على تنقيح مختصره .

ثم حملق بعينيه ولا يدري الا الله ماذا يقصد بذلك ، فقال :

ارايت كيف يكون العلم والعلماء . لا ما يستهوي الاغبياء الاغمار الملاحدة ممن طمس الله بصائرهم ، وخلف ضمائرهم ، فصاروا يظنون العلم موجودا حقا في غير المسلمين .

ولم يكد يقول هذا ، حتى تذكرت ما كان جرى بيني وبينه في سلا حين ذكرنا حكاية البعرة التي فقأت العين . فعلمت حينئذ انني هو المقصود الآن بتلك الحملقة ، فهكذا برهن على انه لم يسلم لي ما كنت قلته له اذ ذاك ، وحين كنت اعلم عقلية امثال هؤلاء ، تغافلت عن كل ذلك ، ثم التفت الى الفقيه ، فازددت به تعرفا بسلام جديد ـ على العادة ـ ثم ابي الشيخ الصوفي ان يترك الجو حتى يكهربه ، فقال :

ان هذا الفقيه مؤرخ ايضا ، وستجد عنده ـ والحمد لله ما يزول به خجلنا نحن اهل جيله . ان لم نقدر ان نخوض معكم في تلك الاخبار ـ وان كانت علما لا ينفع وجهلا لا يضر ، كما يقوله سيدنا مالك امام دار الهجرة رضي الله عنه .

فقلت : جعل الله فيكم يا سادتنا البركة ، واطال لنا اعماركم ، وسقانا من علومكم ، فان كان سيدي احمد يقبل الاخوة لله معي فانني اكون ممنونا بذلك ، فلم ازل بمثل هذا الكلام ازيل به عن صدر السيد العربي ما احس به قد ملاه نحوي ، لانني دائما اكره مساءة هذه الطبقة الممتازة بالاخلاص في الدين ، الموقنة بانها على الحق ابدا حق اليقين ، وكنت اداقع عنها في كل محفل من محافل الشبان المولعين بالعبث بها وبالسخرية من جهلها بهذا العصر ، ومن عادتي ان اتجنب المحاورة معها في العلوم الكمالية التي ليست من صميم المعتقدات، ما لم اضطر الى تبيين الحق وابطال الباطل ، ثم لا افعل ذلك حتى يكونوا هم الملحين علي ، وان كانوا بعد ان يفشلوا في المناظرة، يحطون لي مثل ما يحمله نحوي هذا الشيخ الصوفي الجليل اثر ما حصل بيني وبينه في سلا

حدث السيد العربي انه ما اتى به بعد ان تلقى الخبر بارجاء المؤتمر ، الا ليفهم مني ، ايقدر ان يؤمل من حماد قبول الاسلام ام ينفض منه اليدين ابد الآبدين

وقد ذكر انه ارتاع حين اقترح حماد ارجاء الاجتماع الى ما بعد قليل ، لظنه ان حمادا انما قال ذلك تملصا من المجمع خوف ان يغلب فيه بالحجج والبراهين الكلامية ، فقلت له :

ان لي رجاءا اكيدا في ان يهدي الله الاخ الى ما تحبه ، ثم حكيت له ما امكن ، مما القيته على حماد لعله يفكر في امر الدين . فقال : ايه ، كيف قلت له ؟ فاعدت عليه ما قلت بكلام اكثر تفصيلا ، وقد تضمن بعض ما سمعه مني في سلا من ان الاولى اقناع امثال حماد بدراسة الكون ودراسة ما حواليه ، فقال :

ماذا تقول او لم تعرف ابن عاشر ؟ فقد كان الواجب المحتم عليك ان تقرا معه ابن عاشر وتتبع معه توحيده بشرح ابن كيران وحاشية سيدي محمد القادري ، فاما ما تقوله فانه يبعده عن المقصود منه ، ولا اراك الا ستحرمنا من اخينا ، ولو كنت اعلم الغيب لما تركتك تلقاه قبل ان نجتمع معه، فنلقي عليه البراهين المستمدة من المرشد المعين ومن ام البراهين و . . .

فقاطعه السيد احمد بن عبد السلام فقال : كان هذا الفقيه لم يستحضر اذ ذاك ما قال بعضهم :

عليك اذا رمت الهدى وطريقه
وبالدين للمولى الكريم تدين

بحفظ لنظم كالجمان فصوله
وما هو الا مرشد ومعين

ثم قال السيد احمد : ان في عقيدة السنوسي المنثورة لكفاية لمن استعصى عليه فهم المنظومة لابن عاشر ، ثم قال : وناهيك بشهادة الفقيه العلامة الصدر الاوحد المجاهد المتقن للمذاهب الاربعة فحل العلماء الذي تشد اليه الرحال سيدي عبد الله الورياكلي ، في عقيدة السنوسي ، فانه لما اتصل بها يوما وهو في مجلس تدريسه من رجل اقبل من تلمسان . فتاملها وتصفحها الى آخرها ، قال : الله اكبر والله ما خرج هذا الكلام الا من صدر منور ، ولله على أن لا تفارقني هذه العقيدة ، ثم ادخلها في جيبه ، فكان ذلك هو السبب حتى اشتغل الناس بقراءتها ، وقد اجمع الناس كلهم على ان لا ياخذوا التوحيد الا من عقائد السنوسي او من المرشد المعين . ومن فعل غير ذلك فقد خرق الاجماع .

فقال الشيخ الصوفي : ذكر اهل الكشف ان عقيدة السنوسي تقرا في الجنة كما تقرا في الدنيا ، فهل عقيدة تقرا في الجنة تترك هي او مثلها الى كلام عقلي محض ؟ ان هذا لهو الضلال المبين .

فقال له السيد احمد : هذا من تحكيم العقل ، ولا يحكم العقل الا المعتزلة لعنهم الله .

فقال له الشيخ: كان اسلافنا يبكون على الدين من المعتزلة لعنهم الله ، مع انهم مسلمون ، واما نحن اليوم فكيف يكون بكاؤنا من الملاحدة وانصار الملاحدة ؟ ـ كانه يعنيني ـ ثم زفر زفرة يكاد ينشق بها صدره . فاهويت (وقد ظهر التاثر على وجهي) لا تكلم ، فاذا بابراهيم يقول : جزاكما الله خيرا ، ورضي عنكما ، فببركتكما ان شاء الله ينتعش الدين . ثم قال : ان وقت الصلاة قد وصل ، فاقام الصلاة فصلينا المغرب وقرىء الحزب ، ثم اشتغل الشيخ باوراده المستمرة الى العشاء وهو مستقبل القبلة ، فانتبذت انا ايضا عنهما بكتاب الى ناحية اطالع ، والفقيه السيد احمد يقرا شيئا يثيره الا ان كلمات تفرط منه ، فهمت منها انه يكرر محفوظاته

العلمية ، فقد كان من بين الذي سمعته بيت من الزقاقية ، وآخر من العمل الفاسي ، وآخر من السلم ؛ واما ابراهيم فقد كان من عادته دائما اذ ذاك ان يكون في جناح الدار المختص باهله ، يعين ام الاولاد في ايناس صبيانها المتعددين المتقاربين في السن حتى يناموا ، وكان يفتح لهم مفتاح المذياع حتى يناموا تحت رنانه ، وكان يرى ايناس اولاده في ذلك الوقت واجبا عليه ، يؤدي به ما عليه نحوهم من الحقوق ، لانه يقضي جل النهار من ايام الاسبوع في تجارته ولا يستريح الا الجمعة ، الا انني اليوم لم اسمع صوت المذياع ، فعلمت انه راعى شعور اخيه الصوفي المتزمت ...

وبعد العشاء جلسنا الى مائدة العشاء ، فصار رب المثوى يسائل الفقيه عن اخبار علماء ادركهم ، وقد حرص ابراهيم على ان لا تنقطع سلسلة الحديث حول ذلك الموضوع ، فادركت انه يريد ان يحول بيننا حتى لا تنشب ثانيا في موضوع نكون فيه ايضا على طرفي نقيض .

وبعد التعشي بسرعة ـ والشيخ ملازم للصمت وبيده وسبحته الغليظة في رنات حبة اثر حبة ـ قاد ابراهيم الشيخ الى سرير نومه ، كما قاد الفقيه الى آخر في غرفة اخرى ، ثم اخذ بيدي ، وسار بي الى خارج الدار ، حتى جلس بي على مقعد في وسط الحديقة فقال ـ وهو يبتسم ـ : كدت تفسد علينا آنفا لو اجبت بجواب مخالف لما يقوله السيدان ، الخطة التي رسمتها لالفة رجال الاسرة .

فقلت : ما كنت لاجيب الا جوابا لابد أن يسمعه الشيخ اما اليوم واما في اثناء المؤتمر ، او تظن ان الشيخ الذي لا يعرف الى التوحيد الا ما ذكره آنفا ، سيسكت عنا حين نحاول اقناع حماد بالطريقة التي ارتأينا اقناعه بها ؟ بل الاحسن ان تكون مناظرتنا في هذا الموضوع مع الشيخ في غيبة حماد ، لئلا يجد حماد في صفوفنا انشقاقا ـ في مبحث التوحيد على الاقل ـ فيرده ذلك في الحافرة بعد ما رايناه يحاول التخلص من هوتها .

فقال ابراهيم : اذا كان الامر هكذا ، فحاول غدا ان يكون جوابك الذي لا اعرف كيف هو، موجها الى الفقيه، فانه متى انخنس الفقيه ينخنس الآخر ، وسارشح الفقيه كاقتراح مني الى الشيخ ليحضر معنا في المؤتمر ايضا ، وسيبتهج الشيخ بذلك ، ان لم يكن ذلك منذ الآن هو مقصوده حين صاحبه الينا ، فيريد ان يقول لك : ان معي من يناصرني .

فقلت : كادت مرارتي حقيقة تنشق آنفا بكثرة تلك الالقاب التي تراكم امامي على كل من يذكرون ، وبجهل امثال هؤلاء الكيفية التي كان القرآن يدعو بها الناس اجمعين ، وانه يامرهم بتحكيم العقل باجالته في ملكوت السماوات والارض ، والموضوع الذي لا يقول فيه اهل السنة بتحكيم العقل غير هذا المقام ، والذي هو العجب منهم كونهم يصبون اللعنات على المعتزلة ، ثم لا يزالون يقولون انهم مسلمون ، وهذا كله غفلة مرنوا عليها فقط ، واتبع فيها التلميذ الاستاذ اتباعا اعمى ، وقد انعدم المنبهون ، او فقد المتنبهون ، والا فكيف تجوز لعنة المسلمين ؟ واما حاشية الفقيه على شرح ابن كيران التي ذكرها الشيخ واطال في وصفها، فقد ذكرتني حكاية سمعتها من احد اساتذتي النبهاء الكبار ، وكان يتندر بذكرها ، قال :

الف فلان حاشية على توحيد ابن عاشر ، وكان يراها رؤية البخيل لدرهمه الوحيد ، فصار يدور بها على الفقهاء يقرضون عليها ، فاتاني بها فاجلت فيها بصري ، فلم ار فيها تحقيقا ولا تدقيقا ، ولا مدلول كل كلمة آخرها (قيقا) ، فطرحتها في جانب كتبي ، فكان كلما سالني عنها اعتذر له بانني ما كتبت عليها بعد ، وانا لا يتركني ضميري ان اقول الكذب الصراح في الكتابة عليها ، فسبق الى ذهنه انني اعجبت بتحقيقاته وتدقيقاته ، فاردت ان اطاوله انتظارا للطوارىء ، فاستبد بها فانسبها الى نفسي ، ارايت الى ما يصل اليه بله بعض الناس الذين لا يفرقون بين ناس وناس ؟ وفي عشية بعد ظلام الليل طرق علي الفقيه الباب ، فلما خرجت قال : انني الآن جئت لاذهب بكتابي ، ولا يمكن ان اتحلحل من هنا باية قوة حتى اذهب به ، وان كان ما كان ، ثم جلس امام الباب جلسة من يريد ان يؤيد قوله ، فقلت له : اتئد ، فخرجت اليه بكراريس الكتاب، فناديته الى مصباح من مصابيح الزقاق ، فصرت اناوله كتابه ورقة ورقة ، وانا الزمه الزاما ان يتثبت في كل ورقة حتى يوقن انها متصلة باختها ، فما زلت معه كذلك كراسا كراسا حتى تم الكتاب ، فقلت له : هل هذا كتابك بنصه وفصه ؟ فقال : نعم . فقلت له : لابد ان تعطيني خط يدك بانك توصلت به تاما كاملا كما كنت دفعته لي ، لان ذمتي باقراري باخذه عامرة بيقين ، فلا تبرأ كذلك الا بيقين ، فحاول أن يعتذر كأنه خجل . فقلت له : لا اتحلحل من هنا ولا تفارقني انت كذلك ، حتى تبرىء ذمتي من هذا العلق العظيم الذي لا يقوم ، فمددت اليه الدواة والقرطاس ، فكتب رسم التبرئة تاما كاملا ، وهكذا كلت له صاعا بصاع .

كذلك هذه الحاشية ، وربما لا تكون الا صنو تلك في تحقيقاتها ، ولكن هذه الطبقة معذورة غاية العذر ، فمن يطلب منها غير هذه العقلية فانه الاحمق المافون ، ويكفينا منها انها كانت خير واسطة بيننا وبين من قبلنا ، واللوم كله على طبقتنا هذه ، التي انفتحت المعارف امامها ثم ترى بعض شبانها يتمشيخ ،ويتجمد، ويريد ان لا يزال مقيد الفكر ، وان لم يكن في الحقيقة شيخا ولا جامدا ولا مقيد فكر ، وانما كان له في ذلك مآرب .

نعوذ بالله من اناس ❋ تمشيخوا قبل أن يشيخوا

واما عقيدة الشيخ السنوسي رضي الله عنــه وكذلك منظومة ابن عاشر فانهما تؤديان اليوم مثل ما كانتا تؤديانه امس ، ولا عيب فيهما ولا في اساليبهما ، ولمن اراد ان يسلك تلك الطريقة ، واما مــن اراد ان يسلك الطريقة الاخرى ، ان اقتضاها الحال ، فهــل سلوكه هذا يخرق ذلك الاجماع الذي يزعمه الفقيــه آنفا ؟ وليت شعري كيف هذا الاجماع ؟ فان كان يقصد انه لا يؤخذ التوحيد تدريسا عندنا الا من المرشــد والسنوسية ، فانه غفل او تغافل عن (البيقونيــة) (واضاءة الدجنة) (وتوحيد الرسالة) وغيرهما مما لا يزال يتعاطى الى الآن ، وان كان يريد الاجماع على شيء آخر فما هو ؟ والحقيقة ان اجماعات كثيرة عند هؤلاء ، ينبغي ان لا تعتبر اكثر مما تعتبر اجماعات ابن عبد البر .

استفاق الشيخ في وقته المعتاد ، فصار يذكر الله جهرا باعلى صوته وقد خرج الى الحديقة ، فكان ذلك هو السبب حتى استفاق الجميع ، الا ابراهيم فانه لم يفارق مضجعه الا في وقته المعتاد قبل الفجر بنصف ساعة ، فادينا الصلاة فبقي الشيخ في موضعه مستقبلا الى ان صلى الضحى ، والفقيه يتلو ايضا سرا ، ولعل متلوه اليوم هو عين ما كان يتلوه امس ، واما ابراهيم فقد كان من عادته اذ ذاك ان ينفرد في غرفته الخاصة يتلو في المصحف ، ورده الدائم ، وكان يراجع اثنــاء التلاوة ، وربما كرر ءاية يتفهمها ، وقبل طلوع الشمس بقليل ، ايقظ بنفســه أولاده ووقف عليهم حتى توضاوا وغسلوا رؤسهم — لانهم على الزي الجديد كابيهــم وامهم — ثم صلوا امامه ، وجلسوا حوله ، فحكى لهم نادرة صغيرة تدل على الاخلاق ، وهم يتناولون اللهنة، ثم خرج بهم حتى دفعهم الى الخادم يوصلهم الــى المدرسة ، وتلك عادته الدائمة ، وعند الضحى غادر الدار الى متجره ، وتركنا وحدنا ، وقد اســتاذن في الذهاب .

فمدت الخادم مائدة الافطار ، وفي اثنائها قال لي الشيخ : ان ابراهيم اقترح ان يحضر الفقيه سيدي احمد في مجتمع الاسرة المقبل ، وحسنا فعل ، لانــه نبراس العلوم ، وينبوع المعارف، وشعلة الذكاء، ومجمع كل الفنون ، وصفوة الابحاث ، ومرءاة النقول ، فاعلنت بانطلاق واستبشار وابتهاج : انني مسرور غاية السرور بذلك ، والحمد لله على التعارف . ثم داخلت الفقيه في المحادثة ، ولم ازل به حتى اوقعته في موضوع امــس ، فالتفت الى الشيخ : وقلت له : باذنك يا سيدي تستتم مذاكرة امس ، فان المغرب دهمتنا قبل ان نستتمها . فقال : الامر سهل ، فالمذاكرة لا تاتي الا بخير . فقلت له: لينصت لنا سيدنا حتى ناتي على آخر ما يسنح ، فانني اريد ان اباحث سيدي احمد ، لعلني استثير منــه بالمباحثة ما ينطوي عليه من التحقيق وذلك هو المقصود بالمراجعة فقط ، فقال : قولا ، فانني اسمع .

فقلت للفقيه : انني امس لم افهم كثيرا من تلك المذاكرة ، ما هو سبب ما عيب علي ، حين دعوت انسانا غير مؤمن بوجود الخالق الى اجالة بصره وعقلــه في نفســه ، وفي الذي حواليه ، مما في السماء وما في الارض لعله يهتدي من عظمة ما يرى في نظامه ، وفي تمشيه على وتيرة واحدة في الحياة ، سكون فحركة ، حياة فموت ، وجود ففناء ، طلوع فغروب ، عجيبا غريبا ، فيدرك انه لابد له من مسكن ومحرك ومحي ومميت، وموجد ومفن ومطلع ومغرب ، على نمط ما قال الاعرابي : البعرة تدل على البعير ، والاثر يدل على المسير ، والسمــاء ذات الابراج ، والارض ذات الفجاج ، الا تدل على اللطيــف الخبير . وقوله تعالى : (او لم يتفكروا في انفسهم) وقوله: (وفي انفسكم افلا تبصرون . وقوله ايضا : (او لم ينظروا في ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شيء) وقوله ايضا : (افرآيتم ما تمنون ءانتم تخلقونــه ام نحن الخالقون ، نحن قدرنا بينكم الموت وما نحــن بمسبوقين على ان نبدل امثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون ، ولقد علمتم النشاة الاولى افلا تذكــرون . افرآيتم ما تحرثون آنتم تزرعونه ام نحن الزارعون ، لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون انا لمغرمون بل نحن محرومون ، افرآيتم الماء الذي تشربون آنتم انزلتموه من المزن ام نحن المنزلون ، لو نشاء جعلناه اجاجا فلولا تشكرون ، افرآيتم النار التي تورون آنتم انشاتــم شجرتها ام نحن المنشئون نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين) . الى آخرها من غالب ءايات القرءان التي كان موضوعها بعث العقل من غفلته ليعتبر ويستبصر ، فكم ءاية فيها : (لقوم يعقلون) (لقوم يتفكرون) (ان في ذلك لآيات للمتوسمين) او لا يرى قوله تعالى : (افلا ينظرون الى الابل كيف خلقت والى السماء كيف رفعت والى الجبال كيف نصبت والى الارض كيف سطحت) . فانه اتبع ذلك بقوله ، (فذكر انما انت مذكر) ، مما يدل اعظم دلالة ان التذكير يكون بان تامر باجالة العقــل في الكائنات ، كما قال ايضا : (هاتوا برهانكم ان كنتــم صادقين) ، فما هو البرهان الا حجة العقل .

فقال الفقيه : حاشا حاشا ان نذهب الى انكار هذا، وانما مقصودنا ان الانسان اذا ترك وعقله ، فانه يقع في عبادة مثل الشمس والقمر ، وقد علمنا ان كثيرين من الكفار الماضين ، كانوا يعبدون الشمس ، ولا ريب انه لم يؤدهم الى ذلك الا النظر المجرد عن الشرع .

فقلت : ان هناك فرقا بين انسان كان بين يديك ان تهديه سواء الصراط بالتدريج ، فتقول له : استعمل عقلك في الكون لتستخرج منه اصل التوحيد ، فان عقله لا يؤديه بتوفيق الله الا الى التوحيد ثم يستتم الباقي بسهولة ، وبين انسان غفل ، اعمى البصيرة ، تمثلت له عظمة مثل الشمس فوقف معها، ووقوفه معها يدل على انه اعمى البصيرة، لم يتامل تامل العقلاء، بل كان كالاطفال الذين تلهيهم المظاهر البراقة عن الحقائق ، والا لعرف ان الشمس تتاثر بغيرها كما يتاثر كل ما يشاهــد في السماء والارض بغيره ، ولولا كمه بصيرته لخــرج

بالنتيجة التي خرج بمثلها ابراهيم عليه السلام ، وحماد عالم ثاقب الفكر ، الف الاعتبار ، فلا تؤدي اجالة العقل من مثله الا الى المراد منه .

فقال : او مثل حماد يقال فيه عالم ، فهل قرا النحو والفقه والبيان والاصول والمنطق ، حتى يقال فيه عالم ؟ فما اسهل العالمية اذن ، حين صارت تناط بكل من يرتطن لغة غير العربية التي هي لغة الجنة ، وايضا ، فان مثل حماد الذي وصفته بالعقل ، اذا اردت ان تدره وعقله ، ممن يصيرون الى التجسيم والعياذ بالله ، فكيف يدرك نزاهة الله الموجد للكائنات ـ بعد ان نفرض انه يدرك بعقله وجود الله ـ عن ذات مثل ذوات غيره، وعن زمان ومكان ، وعن ولد وصاحبة ، مما يجب ان ينزه عنه الله تعلى ، فهل تدرك النزاهة عن ذلك بالعقل المجرد ، فضلا عن ادراك وجوب اتصاف الله بالكلام والسمع والبصر التي هي من السمعيات فقط ، ولو كنت قرات احد المتون معه ، لعرف التوحيد دفعة واحدة ، والا فما يؤمن ان يسبق التجسيم ومثله الى عقله، فيصعب ازالة اثره منه، وهذا هو مناط اعتراضنا عليك امس ، وعلاوة على ذلك يحتاج الى الحجج والبراهين العظيمة التي سهرت في ادراكها عيون الفحول، حتى حرروها ، وجلها في ادلة التاويل لما يتبادر منه التجسيم ، كالرحمن على العرش استوى ، واصنع الفلك باعيننا ، يد الله فوق ايديهم ، وحديث نزول الله في الثلث الاخير من الليل ، فكيف يدرك حماد بعقله فقط ، يا هذا ، مذهب الامام الاشعرى والجويني ، والرازي ، والغزالي ، وامثالهم من فحول المتكلمين ، فهيهات ، ابعدت النجعة ، واخطات السبيل .

فتركت الفقيه حتى افرغ ما في جعبته من هذا الكلام الذي قفز فيه من مبحث كنا فيه الى مبحث آخر غير ما نحن فيه ، وقد عذرته لانني اعلم كثيرين لا يالفون النظام في المناظرات، فبينما انت معهم في المشرق، اذا بهم قفزوا الى المغرب ، ولذلك اغضيت عن غالب ما قال . فقلت له :

ان حمادا انما يهديه عقله الى وجود الخالق للكون فقط ، واما ما وراء ذلك من الذي لابد منه فما اسهل ان يقتنع به ان حصل له اصل التوحيد الذي هو وجود الخالق جل وعلا ، واما ما لا يدركه العقل اصلا او لا يدركه مستقلا فانه امام ، وسيتعلمه حماد بسرعة ، حين يقتنع باصل الاديان ، فمتى اقتنع بان للعالم خالقا فاننا نعرض عليه اصول الدين الاسلامي التي ينطوي من بينها ما يستتم به توحيده ، فلا تكون من المستعجلين ، فان الله يعين على الرفق ما لا يعين على الخرق ، والتؤدة خصلة يحبها الله ورسوله ، وما ذكر لنا الله انه خلق الكون في ستة ايام الا لترسخ التؤدة في اخلاقنا ، فننتفع بها في كل اعمالنا ، والانتقال عن معتقد الى معتقد آخر من اصعب شيء على الانسان الا ان يوفقه الله . وتاليف القلوب ممن يرجى اسلامهم مشروع بالكلام اللين واطالة الرسن ، بله المال الذي ينبغي ان يدفع له . ومثل حماد ، يجب على المشفق عليه الراجي له خيرا ، ان يستنفد كل جهوده في استنقاذه من الورطة التي ارتطم فيها المسكين كما يجب عليه سلوك طريقة سهلة لا تنفير فيها، فقد اوصى صلى الله عليه وسلم معاذا ورفيقه لما بعثهما الى اليمن بقوله : بشرا ولا تنفرا ، ويسرا ولا تعسرا ، وهذا صفوان احد عظماء قريش قد استمهل النبي صلى الله عليه وسلم يوم الفتح قليلا في شان الاسلام ، فامهله اكثر مما كان ينتظر ، تاليفا له وطمانة لخاطره ، وتسكينا للروعة التي احدثها فيه انهزام قومه امام جيش الاسلام، وبمثل هذا يجب معاملة امثال حماد ، والا فلو خاشنهم المسلمون لابتعدوا عنهم فيلكوا في الهالكين ، واما ما ذكرته من التاويل للمتشابه ، فانه وان كان انما جاء هنا مستطردا، اعن لك ان التاويل ليس بمتعين كما يظهر من كلامك آنفا، فان التفويض اسهل واقرب لمن خالطت بشاشة الايمان قلبه ، فاين انت من العبارة الرائجة من ان مذهب السلف اسلم ، وهو التفويض ؟ ولا ريب اننا لا ننشد الا السلامة دائما ، واما التاويل ، فكل من ذكرتهم ممن كانوا اساطينه ، الاشعري ، والجويني ، والرازي ، والغزالي ، صرحوا بانهم رجعوا عنه الى مذهب السلف الاسلم .

فلم اكد اقول هذا حتى ثار الفقيه في وجهي ثورة تنافي ادب المناظرة ، فقال ان هذا لم يقل به احد ! فمذهب الأشعري وهؤلاء ، هو التاويل ، وهو المذهب الذي قالوا فيه أنه اعلم ، وكيف يرجع الاشعري عن هذا المذهب ، وهو الذي اشاد به حتى نسب له ؟ كما ينسب المذهب الفقهي لمالك .

فقلت بخفض صوت وتبسم وسكون ورفق : انتظرني يا سيدي هنيهة . فاتيت من الخزانة بكتاب ، ففتحت (الابانة) التي كتبها الاشعري بيده فاذا فيها : انه لم يكن يؤول الا مضطرا ، دفعا لشبه مناوئيه من اهل العقائد الزائفة ، والا فانه لا يعتقد الا مثل اعتقاد السلف ، احمد بن حنبل ، وامثاله .

ثم فتحت كتاب (الجام العوام) ، في علم الكلام ، وهو آخر ما الفه الغزالي ، فاذا فيه حث على مذهب السلف ومن تبعهم . ثم فتحت كتاب (النبلاء) للذهبي ، فاذا فيه في ترجمة الفخر الرازي قوله : لقد تاملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية ، فما رايتها تشفي عليلا ، ولا تروي غليلا ، ورايت اقرب الطرق طريقة القرءان ; اقرا في الاثبات : الرحمن على العرش استوى) (اليه يصعد الكلم الطيب) واقرا في النفي (ليس كمثله شيء) ; ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي .

ثم قرات ايضا في ترجمة امام الحرمين الجويني من ذلك الكتاب انه قال : والذي نرتضيه رايا ، وندين الله به عقدا ، اتباع سلف الامة . ثم التفت الى صاحبي فرايته خجلا ، فاردت ان اكشف عنه بعض ما هو فيه ، فقلت له : اعذرني يا سيدي ، فانني قليل البضاعة في الاطلاع، وانما وقع مصادفة أن اطلعت على هذه النقول قريبا ، ولذلك استحضرتها الآن ، والا فان لي ذاكرة منخرمة .

فقال الشيخ : ان الصوفية يترجح عندهم من جهة الكشف ، ان مذهب السلف احق . فقلت : الحقيقة ان كلا المذهبين صحيح ، وانما ينبغي ان لا يصار الى التاويل الا عند الحاجة ، والمجاز هو المسوغ للتاويل ، وهو كثير ، ان لم يكن ، غالب اللغة العربية ، فمذهب التاويل لا نأباه وان كنا نفضل عليه التفويض ، واذ ذاك استطاع الفقيه ان يستجمع قوته بعد تلك الصدمة العنيفة . فقال : ان في حاشيتي كلاما طويلا حول هذا الموضوع ، ويا ليت انها معي لاتلو منها على مسامع هذا الجهبذ ، ومما سقته هناك ما لا ازال استحضره من كلام ابن دقيق العيدي في هذا المقام ، وهو :

(ان التاويل ان كان قريبا على ما يقتضيه لسان العرب ، وتفهمه في مخاطباتهم ، لا ننكره ولا نبدع قائله، وان كان بعيدا توقفنا عنه واستبعدناه ورجعنا الى القاعدة في الايمان بمعناه مع التنزيه) .

وقد حكيت هناك في الحاشية ، مثل هذا عن عز الدين بن عبد السلام .

فقلت للفقيه : هذا هو الحق الذي لا ينبغي المصير الا اليه ، وياليتني حظيت بمطالعة تلك الحاشية الطافحة بامثال هذه النقول العليا ، فاسترجع وجهه وسامته ، وقال ستراها في اول فرصة ان شاء الله ، ولو كنت اعلم ان سيدي في هذه المكانة لصاحبتها معي — كلمة تملقني بها ، مقابلة للكلمة التي سكنت بها جاشه — فقلت له :

الآن يا سادتي قد بينت لكم مرادي في الكيفيةالتي سلكتها مع حماد ، فان لم توافقوا عليها استبدلناها بغيرها .

فبادر الفقيه فقال : نوليك من ذلك ما توليت ، بشرط ان تتولى انت اتمام مناظرته في المؤتمر الآتي ، ثم ان نجحت في طريقتك ، فبها ونعمت ، وان لم تنجح بؤت وحدك بائم حماد ، وسلمنا نحن ، ثم التفت الى الشيخ الصوفي فقال له : او ليس هذا هو الواجب ؟

فقال اي والله ، فحين زعم انه لا ينقاد امثاله الا بمثل هذا الاسلوب ، فليتول بنفسه الامر الى آخره ، وحسبنا نحن ان نكون شهودا .

*

كذلك خرجت من هذه المناظرة الجديدة بغنم عظيم ، وقد كنت اخاف كثيرا ان يفسد هذان السيدان الخطة التي سرت عليها مع حماد ، ان حاولوا ان يميلوا به عن صراطها السوي ، والآن بت آمنا من هذه الناحية ، وسازف هذه البشرى لابراهيم الآن .

كانت الساعة العاشرة ، فاستاذنت السيدين في الخروج لارتاض قليلا ، فتركت الشيخ يؤدي صلاة الضحى ، وقد شغل عنها بما نحن فيه ، فحين اقبلت على متجر ابراهيم متهلل الاسارير باردني بقوله :

+ كيف الجلسة ؟ الم تمثلوا فيها دور الملاكمين ؟

فقلت له : ليس هناك الا كل خير ونجاح ، فقد فلج القدح فيها ، وظهر الحق في المناظرة لمن يتطلب الحق ، ثم تتبعت ذكر ما جرى حتى اتممته . فقال ابراهيم :

لا ارى حمادا الا سيكون سعيدا ، ولا ارى اسرتنا الا ستحظى عن قريب بمؤمن جديد .

فقلت ان شاء الله بحوله وقوته وتوفيقه .

— يتبع —

قال هشام بن عبد الملك ذات يوم لجلسائه اي شيء الذ ؟ قال له الابرش بن حسان اصابك جرب فحككته .

قال مالك : اجرب الله جلدك ولا فرج الله عنك ! وكان آنس الناس به .

في ستة ايام

خطب وكيع بن ابي سود بخراسان ، فقال : ان الله خلق السموات والارض في ستة اشهر .

فقيل له : انها ستة ايام .

قال : وابيك لقد قلتها واني لاستقلها .

فلسفة الاهتداء

للاستاذ السيد ابي الاعلى المودودي
امير الجماعة الاسلامية بباكستان
تعريب الاستاذ
محمد عاصم الحداد

لما قام المستر برناردشو — الكاتب الانكليزي الشهير — بجولته فى بلاد الشرق، وزار خلالها مدينة سنجابور . اجتمع به فيها مندوب جريدة « الهدى » العربية ، فوجده مرة اخرى يمدح الاسلام ويعترف بمحاسنه ، ويقول ان الاسلام دين الحرية فى الفكر الاسلامي والدستور ، وان لا قبل للمسيحية بمطاولته من الناحية الاجتماعية ، وان ليس فى الدنيا دين كامل فى نظامه الاجتماعي كمال الاسلام ، وان السبب فى تأخر العالم الاسلامي وانحطاطه هو ابتعاده عن الاسلام وتعاليمه السامية ومثله العليا ، وان المسلمين اذا كافحوا وجاهدوا على اسس دينهم الخالصة ، فلا جرم ان تتحقق آمال العالم الاسلامي ورغباته كفلق الصبح .

ولما سمعه مندوب الجريدة يمدح الاسلام ويردد محاسن نظامه الاجتماعي على هذا الوجه ، سأله :

« اذا كنت تستحسن الاسلام الى هذا الحد ، فمالك لا تعلن دخولك فى الاسلام » ؟ .

سؤال ينشأ طبعا عن مثل هذه الآراء والافكار ، لانه لا يكاد يعقل يحق ان رجلا سليم الطبع يعترف بقبح شيء ثم يتردد فى تركه او يعترف بحسن شيء ثم يتردد فى قبوله .

غير ان الذي اجاب به المستر برناردشو على سؤال المندوب ، يدل على انه غير مستعد لقبول الاسلام لكونه لا يجد شيئا يبرر به موقفه ، ولانه فى الحقيقة يعوزه ذلك الشيء الذي يعرف « بانشراح الصدر » .

وهذا شيء لا يتوقف على المستر برناردشو فحسب ، بل قد وجد ولا يزال يوجد فى الدنيا كثير من ارباب الفكر والنظر ، اعترفوا بمحاسن الاسلام واقروا بفائدته من الوجهة الدنيوية او الدينية او كلتيهما ، وسلموا باستقامة نظامه الفكري ونبوغه العلمي وحيويته العلمية ، الا انه لما واجههم السؤال بالايمان والدخول فى دائرة الاسلام ، تلجلجوا واستنكفوا ، كأن شيئا امسك قدمهم ولم يدعهم يتقدمون حتى وقفوا عند حد الاسلام .

وعلى العكس من هذا قد وجد فى الدنيا كثير من الناس صرفوا جزءا كبيرا من حياتهم فى مخالفة الاسلام ومعاداته ، الا انهم درسوا الاسلام فى اثناء هذه المخالفة والمعاداة ، انكشفت عليهم حقيقته ، ولم يتمالكوا ان دخلوا فى دائرته .

فاذن ما هو السر فى اهتداء الانسان وضلاله ان لم يكن هو علمه ومعرفته ؟ .

الحقيقة انه سر عجيب . فشيء واحد يقال امام الوف من الناس ، فمنهم من لا يلتفت اليه اصلا ، ومنهم من يلتفت اليه ولكنه يقفل دونه اذنيه كأن فيهما وقرا ، ومنهم من يسمعه ويفهمه ولكن يأبى ان يقر بصدقه ، ومنهم من يستحسنه ويرطب اللسان بترديد محامده وفوائده ولكن يتردد فى قبوله واعتناقه ، ومنهم من يسمعه ولا يلبث ان ينزله من سويداء قلبه ويؤمن بصدقه .

ومما نشاهده ليل نهار فى حياتنا اليومية ان مئات من الناس يرون رجلا يصاب بالصدمة ويسقط فى الطريق ، فمنهم من لا يأبه له اصلا ويمر عليه معتبرا مصيبته شيئا هينا ، ومنهم من يجد فى قلبه عاطفة العطف عليه ولكن يمر عليه آسفا ، ومنهم من يقف عليه ولكن لرؤية منظره ، ومنهم من يقبل عليه يرفعه ويواسيه ويسعى سعيه لاسعافه ومداواته .

وكذلك يرى الوف من الناس جانيا يمر عليهم مكبولا بالاغلال ، فمنهم من لا يلتفت اليه اصلا ، ومنهم من ينظر اليه نظر الازدراء والاحتقار ، ومنهم من تأخذه عاطفة الرحمة به ، ومنهم من يضحك عليه ويتخذه سخريا ، ومنهم من يفرح بمآله ، ومنهم من يقول : قد ذاق الظالم وبال جنايته ، ومنهم من يعتبر بمآله ويعتزم فى نفسه على اجتناب الجريمة .

هذه انطباعات واحاسيس نفسية تختلف باختلاف الناس ، على ان ليس اختلافها مما يثير الحيرة والعجب ، ولكن الذي يثير الحيرة والعجب ان رجلا واحدا بعينه تكون انطباعاته واحاسيسه بشيء واحد مختلفة فى مختلف الاوقات .

فشيء واحد يسمعه الانسان الف مرة ، وفي كل مرة يابى أن يقبله ، ولكن ياتي عليه حين ينفتح فيه قلبه المغلق دفعة واحدة لذلك الشيء نفسه ، فبينما كان هو لا يجتاز اذنيه من قبل ، اذا به الآن ينفذ الى اعماق قلبه .

وكذلك نرى رجلا واحدا يتفق له غير مرة ان يرى المنكوبين ولكنه لا يلتفت اليهم ولا يبالي بنكبتهم ، على ان هذا الرجل نفسه يمتلىء قلبه رحمة وشفقة في ساعة خاصة برؤية غيره قد نزلت به المصيبة وبتمزق ما يكون فيه قلبه من غلاف القساوة حتى يصبح من اكثر الناس مواساة ورحمة وعطفا على غيره . وكذلك نرى رجلا واحدا يتفق له ان يرى في حياته عدة مناظر مؤلمة ، فيها العبرة لاولي الابصار ، فهو مرة ينظر اليها كأنه يتلهى بمنظرها ، ومرة اخرى ينظر اليها بنظرة ملؤها الاسف والحزن ، ومرة ثالثة ينظر اليها بنظرة تؤثر فيه بصفة دائمة .

فهذا هو السر في اهتداء الانسان الى صراط الله المستقيم او ضلاله عنه . فالقرآن ، وتعليمه هو تعليمه ، والرسول التالي لآياته هو الرسول ، وما زال ابو جهل وابو لهب يسمعانه ، ولكنه ما جاوز آذانهما ، على حين ان ابا بكر الصديق وعلي بن ابي طالب وخديجة رضي الله عنهم لما سمعوه ، آمنوا به عند اول سماعهم اياه بدون ان يمر بخلدهم نوع من الشبهة في صدقه .

وسمعه عمر بن الخطاب غير مرة ولا مرتين ، وابى في كل مرة ان يؤمن به ، بل اشتد في مخاصمته وعدائه ، ولكنه لما سمعه مرة ــ وهو هو نفسه . واذناه هما اذناه ، وقلبه هو قلبه ، تمزق كل ما كان بين قلبه واذنيه من استار العداء والمخاصمة ، وتأثر به حتى انقلبت حياته ظهرا لبطن .

لا ريب ان هذا الاختلاف في الكيفية وفي التأثر والتأثير ، يمكن تأويله على غير وجه واحد من الناحية النفسية ، ولا ريب كذلك في صحة كل وجه من هذه الوجوه ، الا ان الذي لا مجال فيه للانكار والمكابرة ــ في الوقت نفسه ــ ان الحالة التي تظهر مرة بمظهر حجاب مستديم بين الانسان ونظره ، وتظهر مرة اخرى بمظهر حجاب يبقى الى مدة خاصة ويتمزق بنفسه في ساعة تلقائية خاصة ، ولا تظهر مرة ثالثة بمظهر حجاب اصلا . . . ليست هذه الحالة بتابعة لارادة الانسان واختياره ، وانما هي تنشأ فيه بسائق الفطرة والجبلة التي جبل عليها الانسان ، وهي التي يبينها خالق الانسان ومدبر السماوات والارض سبحانه وتعالى بقوله : « فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام ، ومن يرد ان يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء . كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون » . (الانعام) ويبينها في موضع آخر بقوله « ولو شاء الله لجعلكم امة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء » (النحل) . ويبين كيفية اهتداء الانسان بقوله « قل ان الله يضل من يشاء ويهدي اليه من اناب » (الرعد) وكيفية ضلاله بقوله : « واذا قرات القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا وجعلنا على قلوبهم اكنة ان يفقهوه وفي آذانهم وقرا » (الاسراء) .

فالكيفية الفطرية التي تنشأ في قلب الانسان على غير اختيار ولا ارادة منه بسماعه للحق وتجره اخيرا الى قبوله وايثاره ، هي التي عبر عنها باهتداء الانسان في هذه الآيات ، كما عبر فيها عن انشاء الله تعالى هذه الكيفية في قلبه بشرحه لصدره .

اما الكيفية التي تنشأ في قلب الانسان لانكار الحق والاعراض عن قبوله وايثاره ، فقد عبر عنها في هذه الآيات بضلال الانسان ، وعبر عن انشاء هذه الكيفية في قلب الانسان بجعله صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء . اما السبب الذي جاء بيانه في هذه الآيات لاهتداء الانسان وضلاله او انشراح صدره وضيقه ، فهو انه اذا اناب الى الله تعالى مرة ، بدا يتضح له ذلك الطريق الذي يوصله الى الله ، وانه اذا استكبر ولم يشعر بحاجة للانابة اليه ولا بكونه مسؤولا امامه عن افعال لسانه وقلبه وجوارحه ، فانه لا ينزل من قلبه شيء ، ولا يهتدي الى صراط الحق مهما بذل غيره من الجهد في وعظه وتلقينه كلمة الحق .

وهنا ايضا قد اختلط امران اذا فهمنا كلا منهما على حدة ، انحلت لنا العقدة في كل موضع من مواضع القرآن جاء فيه بيان اهتداء الانسان او ضلاله .

ففي جانب قد قيل في هذه الآيات ان الله هو الذي يهدي الانسان ويشرح صدره او يضله ويجعل صدره ضيقا ، وفي الجانب الآخر قد قيل فيها ان اهتداء الانسان وانشراح صدره مشروط بانابته الى الله ، وان السبب في ضلاله وضيق صدره هو انه لا ينيب الى الله ولا يشعر بكونه مسؤولا امامه .

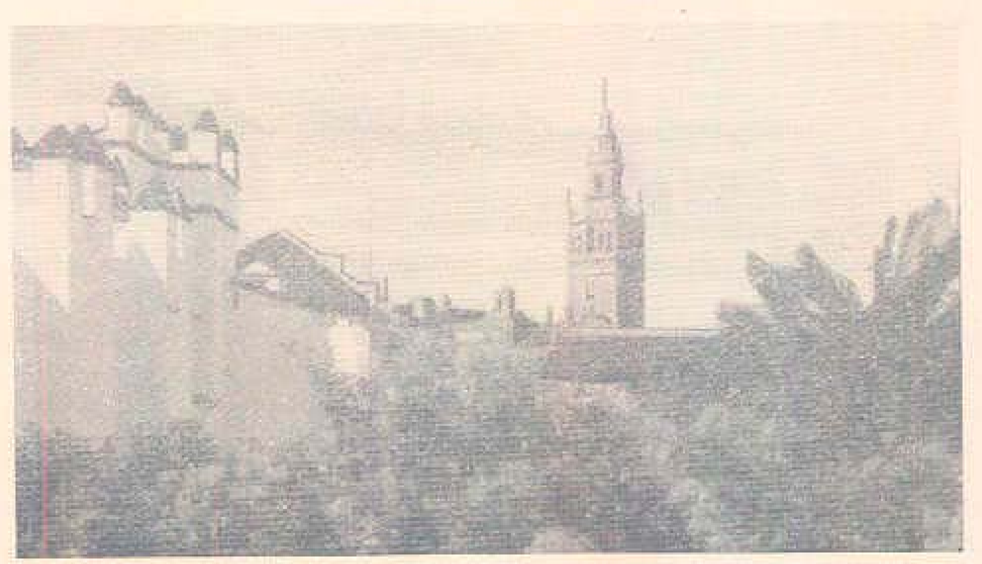
فالعلاقة بين هذين الامرين ان الله تعالى قد اودع فطرة الانسان قوة تعينه على معرفة الحق من الباطل ، والصحيح من الفاسد ، وتهيب به الى التزام الحق واجتناب الباطل ، وان هذه القوة هي الهداية الفطرية التي ينسبها الله تعالى الى نفسه ويشير اليها بقوله : « فطرة الله التي فطر الناس عليها » . ومع هذه القوة فان الانسان فيه قوة اخرى تجره الى الباطل وتزين في نظره الكذب والمين ، وترغبه في الانحراف عن صراط الحق . ومع هذه وهذه فان الانسان فيه قوى داخلية وخارجية كثيرة ، تعاون بعضها قوة الهداية وبعضها قوة الضلالة . فاكتساب العلم ومدارجه المتعددة والتهذيب وكيفياته المتنوعة والبيئة واحوالها المختلفة كل هذا مما يؤثر في الانسان من خارجه ، ويرجح اما كفة اهتدائه او كفة ضلاله .

واعمال الانسان ما في داخله من قوة التمييز والفهم والبصيرة والفراسة والتعقل ، واستخدامه وسائل اكتساب العلم ، واستعانته بعزيمته على الوجه الصحيح او الخاطىء لاتباع الحق او الباطل ، كل هذا مما هو تابع لارادته ، وبه يميز بين قوى الهداية او الضلالة المتعارضة .

كان الانسان فى الدنيا لا تنفك تعمل فيه قوة الهداية الفطرية وقوة الضلالة المفروضة عليه من الله تعالى على صورة غير محسوسة . تدعوه هذه الى الصراط المستقيم باشارات لطيفة ، وترغبه تلك فى زخرفة الباطل ، وتزينه فى نظره وتلهيه بمظاهره الخلابة فهو تارة يتأثر بعوامل الباطل ويستعين بما تحت ارادته من القوى بطريق فاسد ، فيتردي فى هوة الضلالة ولا يلقى سمعه الى صوت الحق ودعوته . وتارة يكون سالكا طريق الباطل ، اذا بعقله وبصيرته وما اليهما من العوامل الداخلية والخارجية ترغبه عنه ويشتد نور الهداية امام عينيه ، نفس ذلك النور الذي كان خفيفا من قبل ، ويفتح عينيه دفعة واحدة فيميل الى طريق الحق ، وتارة يبقى متذبذبا بين طريق الحق والباطل يميل الى هذا مرة والى ذلك اخرى ، ولا يكون من حيث قوة نضاله وعزيمته حتى ينقطع اما الى هذا او الى ذاك . فمن الناس من يفارقون الدنيا على ما كانوا عليه فى هذا العالم من التذبذب ، ومنهم من يموتون على الضلالة ، ومنهم من يدركون اشارة الهداية الالهية بعد بحث وتمحيص ونضال طويل . واحسنهم حظا اولئك الذين فطرتهم سليمة ، وقلوبهم صحيحة ، ونظرهم سديد ، فيستعينون بما آتاهم ربهم من العقل والاعين والآذان واودع فطرتهم من القوى على الوجه الصحيح ، ويستخرجون النتائج الصحيحة من مشاهداتهم وتجاربهم ، ويعتبرون بما يرون من الآيات الالهية ، فلا تغرهم زينة الباطل ولا يخلب لبهم دجل الكذب وهم لا يكادون يرون طرق الباطل المعوجة الا ويعلمون انها لا تصلح لسلوكهم . ثم ان هؤلاء عند ما يتوجهون الى الحق ويتقدمون فى سبيل طلبه ، يرحب بهم الحق ويستقبلهم نور الهداية ، وهم عند ما يرون الحق حقا والباطل باطلا ، لا تنجح قوة من قوى الدنيا فى الانحراف بهم عن طريق الحق الى طريق الباطل .

وشيء آخر يجمل بنا ان نذكره فى هذا المقام ، والحاجة شديدة الى يكون المسلمون على ذكر منه : وهو ان المشاهير من غير المسلمين فى الغرب عندما يأتون بآراء حسنة فى الاسلام ، فان المسلمين فى الشرق ينشرون آراءهم تلك فى جرائدهم ومجلاتهم بكل غبطة وسرور ، كان الاسلام قد حظي بالشهادة منهم بصدقه، ولكن يجب ان لا يغيب عن بالنا ان صدق الاسلام وكونه على الحق غني عن ان يعترف به زيد او بكر ، فكما ان ضياء الشمس لا يحتاج الى ان يعترف به زيد ولا يحتاج حر النار وسيلان الماء الى ان يسلم بهما بكر ، فكذلك صدق الاسلام ، وكونه دعوة الى الحق ، لا يحتاج البتة الى ان يعترف به احد ويفيض عليه الثناء الضافي المعطر ، كائنا من كان ولا سيما اولئك الذين لا تطابق السنتهم قلوبهم ويكذبون باعراضهم عنه وانكارهم له مدحهم له وثناءهم عليه ، فانهم لو كانوا معترفين بحسنه فى حقيقة الامر لآمنوا به ولكنهم لما ابوا ان يؤمنوا به على اعترافهم بحسنه بالسنتهم ، فما هم فى نظر ارباب العقل والبصيرة الا مثل من يسلم بحذاقة الطبيب ويكيل الثناء عليه بدون وزن ولا كيل لصحة وصفه للمرض ، ولكن يرجع لعلاج نفسه الى متطبب يزيده مرضا الى مرضه .

فليعلم المسلمون ان ليس الاعتراف من اي رجل كبير بصدق الاسلام شيئا يفتخر او يغتبط به ، لان الاسلام حسبه فخرا قول الله عز وجل « ان الدين عند الله الاسلام » وقوله « اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا » فى كتابه المجيد .



منارة « لا خيرالدا » باشبيلية ، وهي من آثار الملك المغربي « يعقوب المنصور » من دولة الموحدين .
والصورة مأخوذة من حديقة قصر المعتمد بن عباد باشبيلية .

مشاهداتي في الحجاز

3

للاستاذ: عبد الله كنون

وركبنا الطائرة الى جدة فى طريقنا الى مكة المكرمة واحرمنا فى الجو عند مسامتتنا للميقات ، بعد ان اخذنا اهبتنا لذلك عند الركوب ، ولما وصلنا ، وجدنا السيد السفير فى استقبالنا ، وكان قد خرج بعدنا من المدينة المنورة بالسيارة ، هو والرفقة الذين اتوا معه صباحا ، فتصور كيف وصلوا قبلنا والمسافة بين المدينة وجدة بالسيارة لا تقطع فى اقل من خمس ساعات ؟ ان ذلك كله من عواقب الانتظار فى المطار .

وكنا نريد ان نستريح بالفندق الجديد الذي حجزت السفارة لنا فيه بعض الغرف ، فلما وصلنا اليه وجدنا المكلف لا علم له بذلك الحجز ، حسبما ادعى ؛ وكنا محرمين فلم نشأ ان نناقش معه كثيرا فى ذلك وذهبنا مع سعادة السفير الذي لم يكن يخفف عنا ما نلاقيه من هذه الصعاب الا خلقه وبشره وحفاوته البالغة .

وكان علينا ان نخرج هذه الورقة التي يسمونها ورقة المجاملة ، لتسهيل التنقل فى الطريق بين جدة ومكة وطريق عرفة وغيرها ، فوجدناها عند السيد مستشار السفارة الحاج احمد الشرقاوي ، كما وجدنا عنده رسائل الدعوة الى المادبة الرسمية التي يقيمها جلالة الملك سعود لوفود الحجاج من جميع البلاد الاسلامية مساء ذلك اليوم بمكة ، ولم يكن من الممكن حضور هذه المادبة ، وان أكد علينا المستشار فى ذلك ، فقد خرجنا من جدة عشية ، بعد ان خفت حرارة الشمس شيئا ما وتعرضنا فى الطريق لكثيرمن التوقفات عند مراكز الشرطة المتعددة ، بحيث قضينا فى هذه الرحلة ساعتين كاملتين ، والمسافة لا تتعدى سبعين كيلو مترا ، والسبيل معبدة كاحسن ما يكون .

ومن غريب ما وقع لنا فى احد مراكز الشرطةهذه ان سالنا الشرطي : بكم أكتريتم هذه السيارة ؟ فقلنا له بمائة ريال سعودي ، فانزل السائق وجعل يوبخه ، ثم قال لنا : لا تدفعوا له الا 36 ريالا بواقع ستة اريلة للنفر ، يعني 3600 فرنك ، مبلغ منخفض جدا لكراء سيارة خاصة بين مدينة واخرى على المسافة التي ذكرنا ، ولوكانت اسعار الحاجيات فى الحجاز والكراء والخدمات العامة كلها بهذا التقدير ، وخضعت للرقابة الصارمة ، لصار الحج من اسهل ما يكون على الطبقات الفقيرة والمتوسطة التي لا يستطيعه منها الا من استنفد غاية جهده ، وانفق كل ما عنده ليلبي نداء ربه ويرضي شعوره وضميره ، فمتى ينقضي استغلال الانسان لاخيه الانسان ، او يقف عند حد معقول ، ولا سيما المسلم للمسلم ، وخاصة فى الامور الدينية .

وهنا نذكر استغلال شركات السفر عندنا والنقل الجوي والبحري والبري ، والاثمان الباهظة ، التي تتقاضاها من الحجاج ، والتلاعب الذي تقوم به البواخر بالخصوص فى تاخير مواعد الرجوع ؛ لتستغل الوقت فى تنظيم سفريات من جدة لليمن او غيره من الاقطار الاخرى ، على حين ان الحجاج المغاربة ينتظرون الرجوع الى بلادهم بفارغ الصبر ، وقد اخذ منهم الضعف والعياء كل ماخذ ، فهل آن الاوان لقيام المسؤولين بواجبهم فى هذا الصدد ، وقطع الطريق على كل مستغل مستفيد حتى على حساب الشعائر الدينية والمؤمنين القائمين بادائها ، فينفرج الخناق على الناس ، ويشعروا بانهم فى عهد غير العهد البائد الذي لم تكن تستغرب من رجاله هذه الاعمال ؟ ...

وكان وصولنا الى مكة المكرمة عند الغروب ، ولم نعامل السائق طبعا بما طلب الينا شرطي المركز ، كما اننا لم نتردد فيما يجب علينا البدء به ، ولم نقل ما قاله جرير : (رب ! أمي وصلاتي ؟) بل ذهبنا توا الى البيت الحرام ، وطفنا وسعينا واحللنا من عمرتنا ، ثم جئنا الى رباط المغرب الذي هو محل نزول الوفد ، وهناك

التقينا برجال السفارة الذين حدثونا عن المادبة الملكية وما لقوه فيها من بر واكرام .

ورباط المغرب هذا هو بيت مكون من ثلاث طبقات ويقال انه مشترك بين اقطار افريقيا الشمالية الثلاثة ، فينزل وفد كل قطر منها في طبقة منه ، وفي هذا العام كان نزول الوفد المغربي واعضاء السفارة في الطبقة الاولى المخصصة للمغرب ، مدعاة للتضايق ، ذلك ان هذه البناية ، فضلا عن كونها قديمة وفاقدة لكل اسباب الراحة من حمام ودورة مياه ومطبخ ، فانها صغيرة ، وليس في الطبقة التي كنا بها غير غرفة متوسطة بداخلها بيت صغير للنوم ، يسع سريرين اثنين لا غير ، ثم بيت سفلي تابع للطبقة الاولى ، واحسن ما في هذا الرباط هو قربه من الحرم ، وكونه منورا بالكهرباء .

وانما نصف المنازل التي حللنا بها هنا وهناك ، لنثير اهتمام حكومتنا بالامر ، فانه من الآكد ، بل الواجب ، ان تقوم الحكومة المغربية ببناء بيوت مشرفة في مكة والمدينة ومنى ، ينزل فيها وفد الحج المغربي ، ويستقبل فيها الزوار من مختلف الاقطار الاسلامية ، فانا كنا نخجل من استقبال اية شخصية مهمة في اماكن نزولنا هذه، ولا نجرؤ مطلقا على استدعاء احد لتشريفنا في هذه الاماكن ، ولا ندري كيف كان يفعل اعضاء الوفود التي سبقتنا . . .

وقد وجدنا الحجاج المغاربة الذين جاؤا بطريق البحر في مكة ، والتقينا بكثير منهم ، وكلهم يذكرون ان السفر كان مريحا بل ممتعا ، وكان من بينهم وفد وزارة الداخلية المركب من السادة المختار بن قليلو ، واحمد العبدي ، والخليفة ابن الاحمر ، ومبعوث الاذاعة السيد عبد اللطيف الغربي ، ورئيس البعثة الصحية الدكتور مامون الفاسي ، وهم جميعا من الشبان المهذبين ذوي الاخلاق الكريمة ، وقد قضوا معنا اياما لا تنسى .

ومن الغد صلينا الجمعة بالحرم الشريف ، وكان مشهدا عظيما جدا ، عظيما بروعته ، وجلاله، عظيما بمن شهده من هذه الخلائق التي يخطيها العد ، ولا يستوعبها الوصف، عظيما بالخطاب الجليل الذي القاه امام المسجد الحرام منوها بحكمة الحج، وداعيا المسلمين الى التمسك بعروة الدين الوثقى ، عظيما بهذه الصلاة تجاه الكعبة حيث لا شرق ولا غرب ولا شمال ولا جنوب ، وانما هو كفاح وعيان لا يحتاج معه الى دليل او برهان على صدق قوله عز وجل : (فاينما تولوا فثم وجه الله) . وقد اتيح لنا ان نشاهد هذه الامواج المتلاطمة من البشر ، من المكان المشرف الذي هياه لنا السيد احمد الزمزمي، وهو ملاصق لبيته ، فرشه بالبسط ، وادلى لنا من نافذة بيته مروحة كهربائية ، وكان يتعاهدنا بماء زمزم في آنية نظيفة ، ولم يكن معنا فضلا عن الشخصيات المغربية التي ذكرناها من قبل ، الا اخ هندي من اعيان بلاده ، فكنا موضع غبطة من جميع الذين مروا امامنا ، وكم كان بعض الذين لا يجدون اين يجلسون ، يهمون بالايواء الينا فيردهم الخدم الذين كلفهم السيد الزمزمي بنا ، ونخجل نحن ونستغفر الله من هذا التميز الذي لم تكن لنا فيه يد ، ولم يكن منه بد ، خصوصا وان المحل لا يتسع لاكثر ممن هم فيه .

وكنت اقرا عند الفقهاء ، جواز السجود عند كثرة المصلين كيفما تاتي ، ولو ان يسجد بعضهم على ظهر بعض ، فكنت استبعد ذلك حتى رايته هنا ، وكم كان عجبي شديدا ، حينما سلمنا من الصلاة ، ونظرت فرايت الناس يطوفون بالكعبة ، لا ادري اصلوا معنا ام هم يطوفون من قبل ؟ . . .

وخرجنا يوم السبت ، وكان هو يوم التروية ، الى منى محرمين بالحج ، فمكثنا بها حتى صلينا الصبح من الغد الذي هو يوم عرفة ، وكان نزولنا في البيت الذي اكتريناه بواسطة المطوف ومعرفة السفارة ، وهو بيت قديم كان ملكا للامير منصور آل سعود ، ولكنه الآن متهدم وارضه تراب لا بلاط لها ، ونوافذه وابوابه لا مصاريع لها ، او لها مصاريع مكسرة ، وبالجملة فهو عبارة عن هيكل بناية قديمة ، ومع ذلك فقد كان ثمن كرائه مليونا وخمسين الف فرنك ، لثلاثة ايام او اربعة هي ايام منى ، فانظر كيف يرتفع مستوى الحياة في الحجاز ايام الحج ! ومن هنا قلنا لا بد من بناء بيت مغربي مستوف لاسباب الراحة في كل من منى ومكة والمدينة ، ينزله الوفد ، فانه فضلا عما في ذلك من محافظة على سمعة الوطن وصحة المواطنين ، فيه ايضا اقتصاد كبير .

ومنى قرية ناشئة اعني من ناحية العمارة ، فقد دب اليها الاصلاح والبناء ، وطرقها نظيفة وحسنة ، وبها فندق جميل احتكره هذه السنة الحجاج الباكستانيون ، وبها بناية للمؤتمر الاسلامي العام من افخم ما يكون ، ولم ينعقد هذه السنة ، وعلى ذكر هذا المؤتمر فقد لقينا صديقنا الاستاذ سعيد رمضان الداعية الاسلامي المعروف ، وقد دعا الى مؤتمر انعقد بمكة بعد الفراغ من اعمال الحج ، وكنا حينئذ بجدة فلم نستطع حضوره جميعا وحضره الاخ الاستاذ ابراهيم الكتاني .

ومسجد الخيف المشهور بمنى ، مسجد قديم وله صحن كبير مكشوف ، اما بلاطاته المسقفة فيستحيل وجود محل فيها للداخل بقصد الصلاة مثلا ، فقد احتله فقراء الحجاج من كل قطر وجنس ، معهم اثقالهم وادواتهم ، وصار الواغلون فيهم من غير طبقتهم متطفلين غير مرغوب فيهم .

والجو بمنى اشد حرارة من مكة . . . على اننا وجدنا مكة الطف جوا حتى من المدينة خلافا للمعهود فيها ، وقيل لنا ان الوقت الذي كنا فيه بالمدينة هو اشد اوقاتها حرا ، لانه موسم التمر الذي يدرك فيه ويتم نضجه .

ولقينا بمنى كذلك الاستاذ احمد توفيق المدني ورفاقا له من جبهة التحرير الجزائرية ، والاستاذ عبد الحكيم عابدين من الاخوان المسلمين ، وحجاجا مغاربة كثيرين رجالا ونساء كنا نتفقدهم في اماكن نزولهم وننظر هل بهم من حاجة ؟ ...

وذهبنا الى عرفة ضحى يومها ، وهو يوم الاحد 9 يوليوز ؛ وكان السير منظما كاحسن ما يكون التنظيم مع كثرة الذاهبين مشاة وركبانا ، وارسال السيارات لا حد لها ، والطريق معبد كاحسن الطرق في المغرب ، وشرطة المرور قائمة بواجبها في انتباه عظيم ، ومما تجدر الاشارة اليه ان سيارة كانت امامنا سنحت لها فرصة السبق ، فاراد سائقها ان يغتنمها ، فما كان من الشرطي اليقظ الا ان استوقفه وامره بالنزول ، ثم علاه بالسوط وحكم عليه بالوقوف مدة بحيث بقي متاخرا ... ولم نقض في الطريق الى عرفات الا نصف ساعة ، في حين اننا بعد الوصول بقينا ساعة ننتظر العثور على مكان تخييمنا .

وكان المطوف قد هيأ لنا كل ما يلزم ، واحتفل في ذلك غاية الاحتفال ، فنصب لنا سرداقا فخما وفرشه باحسن ما لديه من الفرش ، واعد لنا من الطعام والماء والثلج فوق الكفاية ، وكان اليوم ظليلا رحمة من الله بوفوده اللاجئين اليه الطامعين في مغفرته ؛ ، فلا تسل عن روحانية ذلك الموقف والانس والاشراق والطمانينة التي غمرت النفوس واثلجت الصدور ...

وآوى الينا بعض الاخوان الذين زاد بهم سرورنا ، ومنهم الاستاذ سيدي التهامي الوزاني الذي لقيناه اول مرة بالمدينة المنورة ، وكذلك جوق المطربين الذي صحب حجاج الباخرة ، فامتعنا بانشاد بعض الامداح النبوية ... ولا اكتم القراء انني منذ نشات وانا اتمنى حجة يصحبنه فيها بعض هؤلاء المنشدين ، للتملي بالانشادات الدينية ، فها هي ذي امنيتي تتحقق بفضل محمد الخامس ادام الله وجوده .

ومن الغريب انا في حالة الانشاد هذه ، استلفتنا انظار الناس ، وجاء بعض المراقبين من جمعية الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ليقوم بواجبه ، ولكنه لما سال عن هذا السرادق ، وراى الراية المغربية ترفرف فوقه وقيل له انه (امير) الحاج الحاج المغربي ، رجع عوده على بدئه ولم يقل لنا شيئا، فهل اطمان الينا اننا لا نفعل منكرا واحترم الصفة الرسمية التي للوفد ؟ .. وعلق بعض الاخوان قائلا : كيف لم ير حضرة المراقب المجلات المعلقة قبالة المسجد النبوي ، وعلى غلافاتها صور الراقصات الخليعة ، وسمع صوت المنشدين للامداح النبوية هنا ؟ ...

وبهذه المناسبة اذكر ، ولو للفكاهة ، ان احد الاصدقاء الكتبيين، اخذ مني ذات مرة نسخا من (مورد الشارعين) شرح (المرشد المعين) لوالدي رحمه الله ، وشرح الشمقمقية ، ثم ما لبث ان رجع الى واستقالني من شرح المرشد قائلا : انه يحرم بيعه لما فيه من تقرير العقائد على مذهب الاشاعرة ، وهو كفر ... فقلت له : لعل فلانا كان عندك اليوم وراى الكتاب ؟ فقال : نعم .

وفلان هذا الذي ذكرته له ، هو احد اصدقائنا من ائمة العلم والدين السلفيين ، وكان له على صديقنا الكتبي المذكور تاثير واي تاثير في انقاذه مما كان عليه من الافكار الخرافية ، التي لم نستطع نحن ان نحوله عنها مدى السنين الطويلة ، لصداقتنا المبتدئة بزمن الدراسة .

فقلت لهذا الصديق : كيف يكون الكتاب الذي فيه هذا البيت :

وجوده له دليل قاطع ※ حاجة كل محدث للصانع

الخ حرام البيع ، والكتاب الذي فيه هذا البيت :

تمنع مس جسمها لثوبها ※ ثلاثة مثل الاثافي في الرقي

الخ حلاله ؟ .. فلم يقبل نقاشا في الموضوع ، كما كان قبل لا يقبل منا نقاشا فيما كان عليه من طريق ، وانا لا ادافع هنا عن عقيدة الاشعرية ، فعقيدتي والحمد لله سلفية خالصة ، ولكني انكر هذا الغلو ، (ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرا) .

ولجا الينا وسط النهار رجل مسن ، عليه سيما الوجاهة ولونه يضرب الى السواد ، فطلب منا ان يستريح عندنا قليلا ... وكان اثر الاجهاد والتعب باديا عليه ، فبقي مدة لا يستطيع الكلام ولا يتنفس الا بصعوبة ، فباشرناه وسقيناه واسعفناه بالثلج على راسه حتى استرجع قوته ، واخبرنا انه من تجار السودان ، وانه ضل عن رفقته ، فاصابه ما اصابه اثناء البحث عنها ، ولما راى هذا السرادق العظيم ، ايقن انه لاناس افاضل ، فلجا اليهم وقد عزمناه ، ولم نتركه يذهب الا في اواخر النهار ، وبعد ان حضر بعض رفاقه . ولما اراد الانصراف دفع الينا بعض الاوراق المالية ، جزاء ضيافتنا له ، فاخبرناه اننا لم نفعل معه الا ما توجبه الاخوة الاسلامية والمروءة ، واننا مسرورين بهذه الفرصة التي اتاحت لنا التعرف باخ سوداني فاضل مثله وخدمته ، احدى فوائد الحج ، واجتماع المسلمين من شتى اقطار الارض في هذا الصعيد المبارك ، وكفانا ما سمعناه من الثناء والشكر فذلك اعظم الجزاء .

وانما ذكرت هذه الحادثة تنبيها الى ما يتعرض له الحاج من الخطر حينما يتيه في هذا الخضم الهائل من البشر ، فان الكثرة من الذين اصيبوا بضربة الشمس ، انما وقع لهم مثل ما وقع لهذا الحاج السوداني ، واذا كان اصحابنا انما اهتدوا لموضع التخييم الذي يعرفونه كل المعرفة بعد ساعة من الزمن ، كما اشرنا لذلك ، فكيف يهتدي الغريب اذا ضل عن مكانه وسط مآت الالوف التي ترتدي ثوبا مماثلا ، وتاوى الى خيم مماثلة؟ على ان الحكومة قد اقامت مراكز للارشاد ، وقسمت مكان الوقوف من الجبل الى مناطق ، واتخذت وسائل

كثيرة لتيسير الاتصال وتوفير اسباب الراحة ، ومن اعظمها وجود الماء بكثرة لا مزيد عليها في كل منطقة . ولولا ذلك لما كان الموسم سالما بالنسبة لقلة عدد الاصابات، خصوصا وقد كان عدد الحجاج في هذا العام حسب الاحصاء الرسمي مليونا وثلاثة آلاف وبضع مآت ، مما نظن انه لم يتقدم له نظير منذ فرض الحج في الاسلام . فقد كان اقصى ما يصل اليه عدد الحجاج ستمائة الف نسمة ، وجاء في بعض الاحاديث ان الله عز وجل يتكفل باكمال هذا العدد من الملائكة ان لم يكمل من البشر .

وقيل لنا ان السبب في كثرة الحجاج هذا العام : ان الملك سعود اذن لكافة قبائل العرب من نجد بالحج ، وكان قبل لا يؤذن لهم الا في نطاق محدود ، وربما كان ذلك لما شاع من المخاوف حول طريق الحج البحرية ، بسبب حوادث خليج العقبة ، فقلب الظن : ان الحجاج من الخارج سيكونون قلة في هذا العام ، وعليه فالكثرة الكاثرة من هذا العدد كانت من الداخل .. وهو شيء ملحوظ في السحن والهندام والسلوك ...

وقبل الغروب اجتمع الينا كثير من الحجاج المغاربة ، وقضينا ساعة الوقوف في التلاوة والذكر والدعاء، وكان الدعاء لجلالة الملك وللمجاهدين الجزائريين ولشعوب الاسلام كافة من اكثر ما انطلقت به الالسنة ، واحر ما تدفقت به القلوب ، تقبله الله ، وكانت ساعة خالدة ليست من هذا العالم الفاني في شيء ، وانما هي سمو بالروح وبالنفس وبجميع المشاعر الى الملا الاعلى ، ونسيان للذات ، وطهرة من جميع الرعونات ، ومقام الاحسان الاول الذي يمن الله به على عباده المتقين ، وهو الذي قال فيه النبي (ص) لجبريل (ان تعبد الله كانك تراه) فلا حرمنا الله منه دائما .

ودفعنا بعد ذلك الى المزدلفة ، فقل في هذه البحار المتدفقة ، ولا اقول الامواج المصطفقة ، من المؤمنين المخلصين ، الذين جاءوا من كل فج عميق يرجون رحمة الله ويطلبون ثوابه ، فكنت ارمي ببصري ذات اليمين وذات الشمال ، فلا ينفذ البصر الى آخر الكتل البشرية التي هي اشبه بغابات من الشجر تتحرك ، وهذا زيادة على قوافل السيارات التي تزاحمت عرضا ما وسعها التزاحم ، واما طولا فلا يدرك لها البصر اولا ولا آخرا . على ان هذا ما هو الا طريق واحد من عدة طرق فتحت هذا العام ، كما قيل لنا الى عرفات ... وصلينا المغرب والعشاء بالمزدلفة ، والتقطنا حصى الرجم ، وكان منظر المشعر الحرام وقد انير بالمصابيح الكهربائية العديدة من اجمل المناظر .

وفي صباح يوم العيد ، قمنا بالاعمال يطلب منا القيام بها في منى ، ثم توجهنا الى مكة فطفنا طواف الافاضة ، وسعينا ، واحللنا من حجنا الاحلال الاول ، ثم عدنا بمنى ورمي الجمرات .

ورمي الجمرات بمنى مشكلة من المشاكل ، مع هذا الازدحام الشديد الذي لم تشهد منى مثله قط ، ومع الحر الشديد الذي لا يتحمله مثلنا من سكان المناطق الباردة او المتعدلة ، ومع ان وقته المفضل هو الزوال قبل صلاة الظهر ، فكيف يتأتى فعله على الكيفية المطلوبة من الوقوف امام الجمرة الاولى والثانية والدعاء عندهما الخ ... اللهم ان احدا لم يكن يستطيع ان يقف ولو رمشة عين عند احداهما ، ولم يكن له يرمي الا بمشقة عظيمة تكاد تزهق فيها النفس ... والعجيب ان الرمي يبدا باثر صلاة الصبح خلافا للوقت المقرر في ذلك ، ويستمر الى الغروب ، ولم ندر هنالك مستند الذين يرمون صباحا ، فقلنا انهم ربما قاسوا الرمي ايام التشريق على الرمي يوم الاضحى الذي رخص فيه النبي (ص) للنساء فجرا وان كان وقته المفضل هو الضحى ، وقلنا انهم ربما ترخصوا في تقديمه استنادا لحديث (فما سئل النبي (ص) يومئذ عن شيء قدم او اخر الا قال افعل ولا حرج) ولكن هذا في يوم النحر ، والتخصيص واضح بقوله (يومئذ) واستبعدنا ان تكون هذه العوالم كلها على ضلال ، وهممنا ان نقتدي بهم ، ثم عرضت لنا الآية (ولا تقف ما ليس لك به علم) ولم تكن معنا كتب اصول ، فلزمنا ما نعرف واعرضنا عما لم نعرف .

ثم بعد الرجوع والمراجعة ، وجدنا ان القول بجواز ذلك ، أي الرمي ايام التشريق منقول عن عطاء وطاووس ولا مستند لهما ، وان الحنفية رضخوا فيه يوم النفر فقط .

وخطر لي ان الناس ربما كانوا يتطوعون بذلك ، ولكن هل يجوز التطوع بما لم يسنه الشارع ؟

وذهبنا في صباح اليوم الاول من ايام التشريق اعني يوم ثاني العيد ، لتهنئة جلالة الملك سعود بعيد الاضحى في قصره بمنى ... واكترينا سيارة اجرة لا تحمل علامة كالتي كانت معنا بمائة ريال سعودي اعني بما يساوي 10000 فرنك لمدة لا تتجاوز ساعة من الزمن ، فليت شعري لو علم شرطي المركز بطريق جدة ماذا كان يفعل بصاحبها ؟ .

ولما وصلنا الى القصر ، اخذنا الى سرادق عظيم كان منصوبا بالفناء ، وفيه وفود من مختلف البلاد تنتظر خروج المهنئين الذين سبقونا ، فانتظرنا معهم ، وكان هناك رجل تظهر عليه سيما العلم وبيده اوراق لم يلبث ان نطق بكلمات كالخطاب ، نوه فيها بالملك سعود حامي الحرمين الشريفين ومحي السنة والمحافظة عليها حتى في لبس العقال وتوفير شعر الذقن ، فلم اشعر ان قلت له ان النبي (ص) لم يلبس العقال ، وليس هذا من امور السنة ، وعقب الشيخ عبد الحكيم عابدين على قولي لم يلبس العقال بقوله : (ولا القصب)

العقال بقوله : (ولا المقصب) وهو المذهب ، يعني تلك الجبب ذات الخطوط المذهبة التي يلبسها الوجهاء في الحجاز .

واذن لنا بالدخول واستقبلنا جلالته بغاية الحفاوة، واجلسنا بجانبيه وبقية الوفود فيما يلينا ، والقى الاستاذ سعيد رمضان خطابا نوه فيه بالملك سعود وجهوده في نصرة الاسلام ، واستنجد به لانقاذ فلسطين واغاثة لاجئيها المنكوبين . . ثم القى شاعر من اندونيسيا اسمه السيد عبد الله حنون ، بالحاء مهملة ، قصيدة بليغة في مدح جلالته ، وقدمت القهوة والمشروبات المبردة ، وانصرفت الوفود لتتقدم وفود غيرها .

وهناك قدمنا هدية جلالة ملكنا المحبوب لاخيه الملك سعود ، وهي عبارة عن زربية عظيمة بديعة الصنع من شغل المغرب، وكنا في المقابلة الاولى ما زلنا لم نتوصل بها ، لانها لضخامتها لم تصحبها معنا في الطائرة ، وانما حملتها باخرة الحجاج فوصلت بعد وصولنا .

وفي المساء ذهبت انا والسيد السفير الى تهنئة وزير المالية السيد عبد الله بن سرور الصبان ، وقدمت له صلة جلالة الملك المعهودة للحكومة السعودية ، وكان جالسا بفناء بيته المجاور لمسجد الخيف ، يتقبل التهاني، فوجدنا هناك شاعرا من الاردن ، القى قصيدة في مدحه، دارت كلها حول (المالية) ووزيرها .

واقامت السفارة بعد الغروب حفلة شائقة بمناسبة تنصيب سمو ولي العهد المعظم الامير مولاي الحسن ، شارك فيها المغاربة وحضرها رؤساء الوفود واعيان الحجاج ، وتوجت في الاخير بحضور سمو الامير محمد بن الملك سعود ، ولم يكن يدور الحديث اثناءها بيننا وبين الزوار الا عن المغرب وعظمة جهاده وتضحية جلالة الملك وبطولة ولي العهد ، مما كان يثير اعجاب الجميع ويرفع راس المغرب عاليا بين بلاد الشرق والغرب ، ويجعله مفخرة العرب والمسلمين .

وتعجلنا في يومين ، فاصبحنا يوم الخميس ثالث عشر ذي الحجة مولين وجهنا شطر مكة ، حيث انهينا جميع العلاقات ، وطفنا طواف الوداع ولم نبت الا بجدة، في الفندق الجديد الذي حاول المكلف به ان يراوغ مرة اخرى في عدم العلم بالغرف المحجوزة لنا ، فبعثنا الى المكلف الذي كان موجودا حال الحجز ، فاعترف وحلت المشكلة ، ومن الواجب ان نقول ان هؤلاء المكلفين ليسوا بحجازيين ، وانما هم سوادين ، وكذلك جميع الخدم في الفندق وفي غيره ، ولذلك لا يستغرب منهم هذا التبلد . . . على انهم في الخدمة والخضوع جاوزوا حد المعهود ، او ذلك هو المعهود من جنسهم .

جلسنا في جدة ننتظر جواب الملك سعود عن رسالة جلالة الملك ، وفي اليوم الثاني مساء وصلنا هذا الجواب مع الهدية الملكية ، ولذلك اخذنا اهبتنا للسفر . فوجدنا لحسن الحظ ، ان الطائرة الى بيروت ستقوم عصر اليوم الثالث اي يوم 14 يوليوز 1957 ـ 13 ذي الحجة 1376 وفيها اماكن فارغة لنا جميعا ، فقطعنا التذاكر ، واصبحنا في ذلك اليوم نواجه مشكلة صرف العملة السعودية التي بقيت بايدينا ، وهي مبلغ وافر . وكنا نظنها من السهولة بمكان ، فاذا بالامر على خلاف ذلك .

ذهبنا الى البنك ، فاخبرنا المكلف انه لا يمكن ان نصرف الا باذن حكومي ، وسالنا عن الصرف في السوق الحرة فاذا به 60 فرنكا للريال السعودي مع العلم بان البنك المخزني المغربي صرفه لنا بسوم 93 فرنكا ، فالخسارة اذن 33 فرنكا في الريال ، وربما كانت اكثر ، اذا علم الصيارفة بالمبلغ الكبير الذي عندنا .

ولجانا الى مكتب النقد ، وعرضنا عليه المسالة . فاظهر استعداده لمساعدتنا ، حيث علم اننا وفد رسمي، ولكن بشرط احضار شهادة من البنك الذي صرفنا عنده المبالغ المالية الخاصة ، والوثيقة التي احضرناها معنا ، فرجعنا الى البنك واخذنا منه الشهادة المذكورة، وادلينا بها لدى مدير مكتب النقد ، فامر باعطائنا تصريحا الى البنك بصرف المبلغ الفائض لدينا بالفرنك المغربي لا غير ، بالسعر الرسمي الذي هو 88 فرنكا للريال . . .

وهكذا رجعنا الى البنك مرة ثالثة ، ووجدت المدير بالباب منصرفا الى حيث لا يعود يومه ذلك ، فاظهرت له التصريح فامضاه ودخلنا عند المكلف ، وهو مغربي الاصل من الاسرة الناصرية ، فاعد لنا حوالتين احداهما بالمبالغ المالية الخاصة بنا ، والاخرى بما يخص الحكومة . . . وكانت الصعوبة عظيمة في عد الاوراق المالية السعودية ، وقد سبق ان قلت ان اكبر ورقة فيها هي التي من فئة عشر اريلة ، فاجتمع عليها ثلاثة موظفين حتى اتوا عليها عدا ، وما كادت تنتهي هذه الاعمال حتى جاء وقت السفر فانصرفنا من البنك راسا الى المطار .

ولا بد ان اشير هنا الى ان هذا البنك هو بنك الهند الصيني ، فهو اجنبي عن البلاد ومع ذلك فان جميع موظفيه عرب ، سمر الالوان ، يرتدون القميص ربلسون الطاقية ، ما عدا واحدا رايته بالطابق العلوي لما قابلت المدير ، وهم يقومون بجميع اشغال البنك على اتم الوجوه ، وبالعربية ، بل وبالارقام الهندية ايضا ، فليت شعري كيف يعمل موظفو الادارة المركزية للبنك في مراقبة حساب هذا الفرع وتصديق اشغاله ؟ . .

فهذا هو الاستقلال الذي نريده لبلادنا ، وعدم التبعية التي نتغزل بها .

ومثل هذا يقال في جميع المصالح الحكومية بالبلاد العربية السعودية ؛ فمثلا الجامعة السعودية التي وجدناها حديث جميع الاندية هناك ، وفي البلاد العربية التي زرناها من بعد . وقد فتحت في اول هذه السنة الدراسية الحالية ، لم يستجلب لها اساتذة اجانب غير عرب ، فيعمل من اول يوم على تعجيم التعليم العالي ، ولا القيت مقاليدها بين ايدي عمداء اجانب بل جعل على راسها رجل عالم مؤمن يحظي بثقة العالم الاسلامي والعربي معا ، وهو الدكتور عبد الوهاب عزام ... وهكذا يلحظ الفرق بيننا وبينهم واضحا في الاتجاه والشعور ، مع اننا ربما كنا اغنى بالكفاءات التي لا تحوجنا – على الاقل – في اعمال الادارة والتسيير الى مديرين اجانب للمؤسسات يعتمد عليها في بناء كياننا والتمهيد لمستقبلنا .

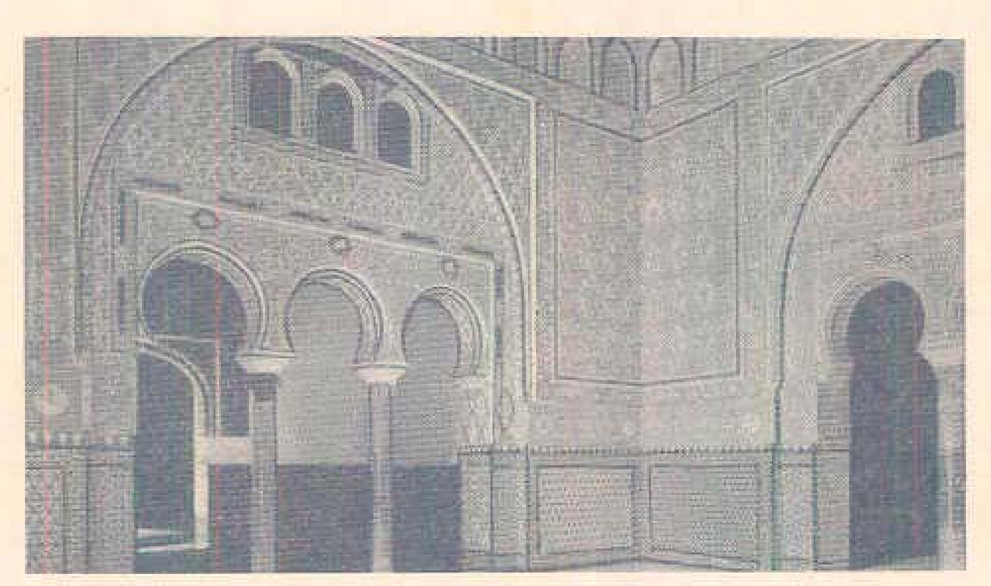
وقد اوشكت ان اضع القلم ، ولم اقل عن الحالة الاجتماعية في الحجاز عموما ، على ما شاهدت في هذه الايام القليلة ، والتي تغلب عليها صفة الموسمية ، فلا تظهر ملامح البلاد الحقيقية من خلال تلك الصفة . وعلى كل حال فقد اشرنا الى الحركة العمرانية القائمة على قدم وساق ، واشرنا الى الاصلاح الذي ادخل على المسجد النبوي ، ونشير الى ان اصلاحا آخر نضيره ، يباشر بالمسجد الحرام ، وقد تم منه تسقيف المسعى ؛ فاصبح مضللا يحمي الساعين بين الصفا والمروة من وهج الشمس وحرارة القيظ ، وجعل فيه حاجز بين طريق الذهاب والاياب ، يحول دون تصادم الساعين ؛ وبحسب ما راينا فان هناك اروقة عظيمة ما يزال العمل فيها قائما ، ستضاف الى المسجد ويصير المسعى حينئذ داخل اسوار الحرم .

وكما اضيفت الى عين زبيدة بمكة ، العين العزيزية وبذلك غزرت المياه في الحرم المكي الشريف كذلك فان اعمالا عظيمة تجري بخارج المدينة ، لاضافة عين جديدة الى العين الزرقاء ، قصد توفير المياه بالحرم المدني ايضا ...

والنهضة العلمية بالحجاز على حسب ما علمنا ، تتقدم كل يوم ، ولا سيما في عهد الملك سعود فقد اسست في السنة الاخيرة مدارس ثانوية كثيرة في كل مكان ، وهاهي الجامعة السعودية قد فتحت ابوابها في الرياض عاصمة المملكة . . وهناك معاهد ابحاث مختلفة سمعنا عنها ، ومدارس للقضاء الشرعي بمكة وغيرها .

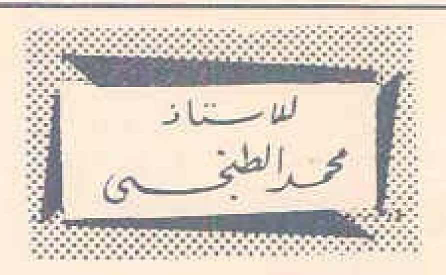
والصحافة راقية هناك ، ما بين جرائد ومجلات ، وما رايناه منها لا يقل عن نظيره في بقية البلاد العربية ، والسينما لا وجود لها ، على اننا سمعنا ان دور الكبراء اكثرها يتوفر على شاشة بيضاء خاصة .

والمراة ما تزال متحجبة حجابا شديدا ، وتعليم البنات ما يزال غير مسموح به رسميا ، وسمعنا انتقادات كثيرة على هذه الجمعية المسماة بجمعية الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ... على اننا لم نسمع انتقادات سياسية ، ولا شعرنا بتذمر من رجال الحكم ، كما يوجد في بعض البلاد العربية الاخرى .



قاعة السفراء بقصر المعتمد بن عباد باشبيلية ، آية من آيات الفن الاندلسي العربي البديع ، نقوش رائعة ، والوان لا تزال بالرغم من تطاول السنين محتفظة بجدتها ونضارتها .

هل للدولة أن تأخذ ضرائب عن الخمر



هل يجوز للحكومة الاسلامية ان تاخذ العشور من ثمن الخمر والخنازير والميتة المنتفع بها ؟
موقف عمر صريح في جواز ذلك ؟
فكيف يتلاءم هذا مع تحريم الاسلام للخمر ومحاربتها ؟

لا يستسيغ كثير من مفكري المسلمين للعاملين بشريعة الاسلام ، ان ياخذوا العشور في المواني‌ء والحدود من غير المسلمين من ثمن الخمر والخنازير والميتة المنتفع بها ، لما ثبت ورسخ في الاذهان من تحريم الاسلام لها ، ومحاربته للخمر بنوع خاص .

وقد راجت استفسارات في هذه القضية بين بعض الخواص ، اثناء بحث ميزانية السنة الفارطة في المجلس الوطني الاستشاري بالمغرب ، ويظهر ان البعض كان يعتقد ان تعشير تلك المواد لا يجوز من جهة التشريع الاسلامي الذي يحرمها ، وانما وقع السكوت لاعتبار ان راي المنع لا يسمع في مثل هذه القضية التي لها وزن كبير في موارد الميزانية المغربية، وسيتكرر نفس الموقف مع ميزانية السنة الجديدة .

وان استمرار السكوت عن القضايا التي يعتبرها الانسان مخالفة للحق ، قد يجعل النفس من الوجهة التربوية الروحية كالمصرة على المعصية المتكررة ، فتكيف بخلق التطبع على المخالفات حتى تصبح لا تبالي بها .

وحيث انني ممن يدعون الى تطبيق الشريعة الاسلامية في سائر القضايا ، فقد دعتني هذه الاعتبارات الى محاولة كشف القناع عن جوانب من هذه القضية ، عسى ان تتلاءم مع وضعنا الحاضر ، مع اعتباري اياها من جهة التشريع قضية فيها مثارات للاجتهاد ، يجدر باقلام الباحثين ان تتعاون على تمحيصها تنويرا للافكار، وكشفا عن اسرار تشريعنا في هذا المضمار ، لانني قد عثرت بعد البحث على ان الخمر والخنازير عشرت في عصر يعتبر المعيار الصحيح لتطبيق الشريعة الاسلامية هو عصر الخلفاء الراشدين ، فكيف ساغ لمثل عمر بن الخطاب ان يقر تعشير الخمر مع ما علم من تحريم الاسلام لها بجميع اصنافها **ومحاربتها الى اقصى** الحدود ؟ .

سيتبين لنا بعد القاء نظرة عابرة على بعض قواعد تمس هذا التشريع ، ان عمل عمر فيه عمق نظر . وتحقيق لمصلحة خزينة الدولة ، ونوع محاربة للخمر والخنازير بوضع ضريبة مهمة عليها .

فهناك قواعد عامة يجب مراعاتها سواء بالنسبة للمسلمين او لغيرهم . وهناك احكام تتعلق بالمسلمين يجب ان تطبق عليهم .

وهناك حالة خاصة لغير المسلمين لا تتشدد فيها شريعة الاسلام معهم، فمن المعلوم ان الله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن كالزنى وشرب الخمر واكل الخنزير والميتة ، **وهذا تحريم مباشر لهذه الامور .**

وهناك وسائل لهذه المحرمات حرمتها الشريعة ايضا ، فقد قال الشافعي ان ما كان ذريعة الى منع ما احل الله لم يحل ، وكذا ما كان ذريعة الى احلال ما حرم الله ؛ فقال ابن الرفعة : في هذا ما يثبت ان الذرائع الى الحرام والحلال تشبه معاني الحلال والحرام .

وقال القرافي سد الذرائع معناه حسم مادة وسائل الفساد دفعا له ، فمتى كان الفعل السالم عن المفسدة وسيلة للمفسدة منع مالك من ذلك الفعل في كثير من الصور .

وقال ايضا : موارد الاحكام على قسمين ، مقاصد وهي المتضمنة للمصالح والمفاسد في انفسها ، ووسائل ، وهي الطرق المفضية اليها ، وحكمها حكم ما افضت اليه من تحليل وتحريم ، غير انها اخفض رتبة من المقاصد في حكمها ، والوسيلة الى افضل المقاصد افضل الوسائل ، والى اقبح المقاصد اقبح الوسائل .

ومستند تشريع الذرائع القرآن في قوله تعالى (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم) فنهى الله عن سب المعبودات من دونه وان كانت عبادتها باطلة، حتى لا يكون ذلك سببا باعثا لعبادها المشركين على سب الله ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : من الكبائر شتم الرجل والديه ، قيل وهل يسب الرجل والديه ؟ قال نعم يسب ابا الرجل فيسب اباه ، ويسب امه فيسب امه) فقال العلامة ابن بطال المالكي شارح البخاري : (ان هذا الحديث اصل في سد الذرائع) ولابد ان يبقى الشخص ستارا بينه وبين الحرام الممنوع ، فالراعي حول الحمى يوشك ان يقع فيه .

وقد اعتبرت الشريعة حفظ الدين والنفس والعقل والعرض والمال من المقاصد ، فما يؤدي الى الاخلال بهذا الحفظ او الى تضييع هذه الاشياء من الوسائل القريبة المقصودة ممنوع فيها ، وما يؤدي الى صيانتها حتى تؤدي مهمتها على احسن الوجوه مطلوب ومحمود .

فمن حفظ العرض ، منع الزنى وتحريمه ، ومن حفظ العقل تحريم ما يفسده أويعطل موهبته من الخمر التي هي جماع الاثم ، وقد شن الاسلام على الخمر حربا شعواء فحين حرمها الله اهرق اهل المدينة الخمر التي كانت محفوظة عندهم ، حتى جرت سكك المدينة بها كما في الحديث ، ولما تحاقر بعض الجيش عقوبة شاربها فتهافتوا عليها ، استشار عمر الصحابة فجعلوا عقوبة شاربها ثمانين جلدة ، وقد اخرب عمر حانوت رويشد الثقفي ، الذي كان يبيع الخمر ، وقال له انما انت فويسق لست برويشد ، واحرق علي بن ابي طالب قرية كان يباع فيها الخمر ؛ وقال ابن تيمية : انه يجوز للامام ان يخرب المكان الذي يباع فيه الخمر ، قال ، وقد نص على ذلك احمد وغيره من العلماء ، وقد كان بعض الامراء يفعلون هذا ، ففي مادة (مخر) من كتاب لسان العرب لابن منظور ، « قال زياد حين قدم البصرة امير : (ما هذه المواخير الشرب عليه « كذا » حرام حتى تسوى بالارض هدما واحراقا) ومن نكت الحافظ ابن حزم على شارب الخمر (ما راينا شيئا فسد ، فعاد الى صحة ، الا بعد اللتيا ، فكيف بدماغ يتوالى عليه السكر كل ليلة : وان عقلا زين لصاحبه تعجيل افساده كل ليلة لعقل ينبغي ان يتهم) وكان يوسف بن تاشفين يعيب على ملوك الطوائف بالاندلس تواكلهم واهمالهم للدفاع عن البلاد ، واخلادهم للذات والراحة ، فيقول انما همة احدهم كأس يشربها وقينة تسمعه ولهو يقطع به ايامه) .

وقد حرم الاسلام ثمن الخمر كما حرم مهر البغي اي اجر الزانية .

أثمان الخمور والمصالح العامة :

واذا باع مسلم خمرا ، او اخذت الزانية عن زناها اجرا ، فلا يحل لهما ذلك ، بل تصادر هذه الاموال كعقوبة لهما ، وتصرف في المصالح . قال شيخ الاسلام بن تيمية في فتاواه : ومن باع خمرا لم يملك ثمنه ، فاذا كان المشتري قد اخذ الخمر فشربها ، لم يجمع له بين العوض والمعوض ، بل يؤخذ هذا المال فيصرف في مصالح المسلمين ، كما قيل في مهر البغي ، وحلوان الكاهن ، وامثال ذلك مما هو عوض عن عين او منفعة محرمة اذا كان العاصي قد استوفى العوض) .

وعلى هذا يمنع شرب الخمر وتعاطي الزنى ، ويعاقب فاعلهما ، وتصادر الاموال المبذولة فيهما لصرفها في المصالح ، وقد تهدم امكنتهما ، واذا كانت تهدم الامكنة الموجودة فبالاحرى لا يسمح بانشاء امكنة مفقودة .

وهنا تاتي قاعدة درء المفاسد ، ومنع وسائل الشر عموما ، وقد ذكر فقهاء القانون الاسلامي قضايا كثيرة من هذا النوع ، فمنعوا من كراء الاماكن لبيع الخمر او للذين يتخذونها مجمعا للفساد سواء كانوا من اهل الاسلام ام لا ؟ لان الزنى حرمته جميع الشرائع السماوية ، وقد كان الاحتياط في العصور الاولى حتى في سكنى العزاب ، فكان عمر بن الخطاب يأمر بان لا يسكن العزاب بين المتاهلين ، وان لا يسكن المتاهل بين العزاب ، وثبت في الصحيحين ان النبي نفى المخنثين وامر بنفيهم من البيوت، خشية ان يفسدوا النساء، كما في فتاوي ابن تيمية ، فقاعدة منع وسائل الشر مطردة.

وقد اورد القرافي قضية استشكال اخذ الجزية من الكفار ، واقرارهم على كفرهم ، حيث يجوز هذا ولا يجوز اخذ العوض للتمادي على الزنى وغيره من المفاسد ، واجاب بأن قاعدة اخذ الجزية هو من باب التزام المفسدة الدنيا لدفع المفسدة العليا ، وتوقع المصلحة العليا ، بيانه ان الكافر اذا قتل انسد عليه باب الايمان ، الى ان يقول : فشرع الله الجزية رجاء ان يسلم في مستقبل الازمان لا سيما مع اطلاعه على محاسن الاسلام والا لجاء اليه بالذل والصغار في اخذ

الجزية : فاذا اسلم لزم منه اسلام ذريته فاتصلت سلسلة الاسلام من قبله بدلا عن ذلك الكفر ، وان مات على كفره فنحن نتوقع اسلام ذريته المخلفين من بعده ، وكذلك يحصل التوقع من ذرية ذريته الى يوم القيامة ، وساعة من ايمان تعدل دهرا من كفر .

وهذا التعليل صحيح ، يشهد له الواقع ، وقد اقترح قتل اسرى غزوة بدر على الرسول ، فقال اني ارجو ان يخرج الله من اصلابهم من يعبده ولا يشرك به شيئا ، واخذ منهم الفداء فتحقق رجاء الرسول .

ضمان الحرية الدينية لاهل الذمة والمعاهدين :

وقد صالح كثير من اليهود والمسيحيين والمجوس الفاتحين المسلمين على اساس البقاء على دينهم وما يامرهم به من اعتقاد وطقوس دينية وما يحله لهم من مطعم ومشرب وملبس وتقاليد ، فوفى لهم المسلمون بشروطهم .

ضريبة الاستيراد والتصدير عامة على اهل الذمة وغيرهم :

ولا مندوحة لبلد تجلب اليه التجارات وتصدر عنه ، من اخذ ضريبة عنها ، وهذا ما وقع منذ زمن عريق في القدم ، واذا كان بعض الناس يانفون من ذلك ويستنكفون فان استنكافهم في غير محله ، ففي كتاب الخراج لابي يوسف صاحب الامام ابي حنيفة رحمهما الله عن ابن سيرين قال (ارادوا ان يستعملوني على عشور الابلة (اسم موضع) فابيت ، فلقيني انس بن مالك فقال ما يمنعك ؟ فقلت العشور اخبث ما عمل عليه الناس ، فقال لي لا تفعل ، عمر صنعه ، فجعل على اهل الاسلام ربع العشر ، وعلى اهل الذمة نصف العشر ، وعلى المشركين ممن ليس له ذمة العشر) وقد تكرر هذا التقدير في الكتاب المذكور ، وعلى اساس هذا ذكر الاستاذ الكبير السيد عبد العزيز بنعبد الله في تعليقه على كتاب الدكتور الحبابي (الحكومة المغربية في فجر القرن العشرين) الذي نشرته « العلم » : (انه كان للخلفاء الاولين الحق في اصدار القانون ، فهذا عمر بن الخطاب يحدث لاول مرة ضريبة الايراد والاستيراد) ولكن في بعض الروايات الموثوق بها ، ان عمر اقر شيئا كان موجودا قبله ، ففي الموطأ ، عن مالك ، انه سال ابن شهاب : على اي وجه كان ياخذ عمر بن الخطاب من النبط العشر ؟ فقال ابن شهاب : كان ذلك يؤخذ منهم في الجاهلية فالزمهم ذلك عمر .

اذا علمنا كل هذا فكيف يكون العمل في شان الخمر والخنازير والميتة التي ينتفع بها ، هل تترك بدون ضريبة وعشر ، فتعظم تجارتها ويكثر رواجها برخصها ، وتحرم خزينة الدولة منها ؟ ام يفرض منعها على اهلها الخارجين عن الاسلام ؟ ومن كانت تجارته من اهل الذمة في الخمر والخنازير هل يعفى من دفع الجزية لان تجارته في اشياء يحرمها الاسلام ؟

لقد اختار عمر ان تؤخذ الجزية والعشر من اثمان الخمر او غيره ، على ان لا يتولى المسلمون بيع ذلك ، بل يولون اهل الخمر والخنازير والميتة بيعها ، ويقبضون منهم النسبة المطلوبة ، سواء كانت عشرا ، او نصف عشرا ، او جزية ويقع تقويم الخمر والخنازير كسلعة في باب العشرات على يد اهل تلك التجارة لهذا الغرض ، فروى ابو يوسف عن عمر بن شعيب ان اهل منبج (قوم من اهل الحرب وراء البحر) كتبوا الى عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه : دعنا ندخل ارضك تجارا وتعشرنا ، فشاور عمر اصحاب رسول الله في ذلك فاشاروا عليه به ، فكانوا اول من عشر من اهل الحرب ، وفي الكتاب المذكور ايضا (واذا مر اهل الذمة على العاشر بخمر او خنازير ، قوم ذلك على اهل الذمة ، يقومه اهل الذمة ، ثم يؤخذ منهم نصف العشر ، وكذلك اهل الحرب اذا مروا بالخنازير والخمور فان ذلك يقوم عليهم ثم يؤخذ منهم العشر) .

قال (اي ابو يوسف) : وحدثنا اسرائيل عن يونس عن ابراهيم بن عبد الله الاعلى قال سمعت سويد بن غفلة يقول : حضرت عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقد اجتمع اليه عماله ، فقال : يا هؤلاء انه بلغني انكم تاخذون في الجزية الميتة والخنزير والخمر . فقال بلال : اجل انهم يفعلون ذلك ، فقال عمر : فلا تفعلوا ، ولكن ولوا اربابها بيعها وخذوا الثمن منهم . قلت وهذا يدل على ان لاهل الذمة ان يتداولوا هذه الاشياء بالبيع والشراء كما اقروا على ان يتناولوها بالاكل والاحتساء .

التعشير التجاري المتماثل :

وروى ابو يوسف عن عاصم بن سليمان عن الحسن قال : كتب ابو موسى الاشعري الى عمر بن الخطاب ان تجارا من قبلنا من المسلمين ياتون ارض الحرب ، فياخذون منهم العشر ، فكتب اليه عمر خذ انت منهم كما ياخذون من تجار المسلمين .

وما دمنا نعايش من ياكلون الخنازير ويشربون الخمور ، فليس من المصلحة ان يعفوا من ضريبة تجارتها ، وانما المصلحة ان نحمي المسلمين من شربها وآفاتها ، ولو زادت الحكومة في ضريبتها حتى تبلغ المائة في المائة ، لكان في ذلك خير لخزينة الدولة ، وحماية للضعفاء من شربها او من كثرة شربها على الاقل ، وبعض الشر اهون من بعض والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم .

المسلمون في الصين

للاستاذ محمد بن تاويت .
مدير معهد مولاي الحسن للابحاث
بتطوان



بالصين جماعة عظيمة من المسلمين ، اختلف في عددها ، من عشرة ملايين الى خمسين مليونا ، وحسب الاحصاءات المتعددة والمختلفة حسب سنواتها ، ومهما يكن ، فهذه الجماعة العظيمة ، تكون امة من المسلمين ، لها كيانها الخاص ، ووجودها القوي ، الذي تفرضه في ميادين شتى، في الحكومة والتجارة والصناعة والثقافة وغيرها ، وهي تعد من اشد ، المسلمين تمسكا بالدين ، وتحمسا لمبادئه ، ونشاطا في نشر تعاليمه .

والدين الاسلامي ، بالصين ، هو الدين الوحيد الذي له علائمه الواضحة ، وشخصياته القوية ، والى جانبه فهناك بعض الفرق الدينية ، مثل الكنفوشيوشية ــ نسبة الى المعلم الصيني المشهور ، والطاوية مذهب صيني ، والبوذية نسبة الى بوذا الهندي ، والوثنية . اما المسيحية ، فليس لها الا وجود ضئيل ، بالنسبة لباقي الاديان، ووجود بعض الاسماء المسيحية وانتشارها لا يدل على انتشار المسيحية بهذه البلاد ، فقد اتخذ بعض الصينيين اسماء مسيحية ، مثل الاسماء : John Margaret, Mary, Richard ولكن اتخاذهم ذلك، كان بتأثير ثقافة الاروبيين على بعضهم ، او علاقتهم ببعض هؤلاء ، ولهذا فليس من السهل ، ان يعتمد على ذلك في تمييز المسيحيين عن غيرهم . . .

وقد تعرف الصين على الاسلام ، في القرن السابع الميلادي ، بواسطة العرب الذين وصلوا عن طريق البحر الى « كانتون » ، « وهانغو » كما تعرفوا عليه بواسطة المسلمين الذين تسربوا اليه ، عن طريق البر ، من ايران ، وتركستان . . .

اما اتصال الصين بالمسلمين ، وجها لوجه ، فقد كان على عهد الامبراطور « هسوان تسبونج » ، ما بين ثلاث عشرة وسبعمائة ميلادية وست وخمسين وسبعمائة ، حيث زحف اليهم القائد العظيم ، قتيبة ابن مسلم ، بجيوشه المظفرة ، وانتصر على ذلك الجيش الضخم الذي كان الامبراطور السالف ، قد اعده لمواجهته في مائتي الف مقاتل ، وعلى اثر انهزام هذا الجيش ، فتحت الصين ابوابها للمسلمين .

وقد ذكر SI-YU-CHUEN في كتابه الانجليزي (معالم آسيا الغربية) : « ان المسلمين لما وصلوا الى قلب الامبراطورية كانوا قد احضروا معهم كتبهم المقدسة (القرآن) وانهم قدموها كهدية الى الامبراطور ، الذي تقبلها منهم ، وسلمها الى غرفة الترجمة لتترجم ككتب مقدسة ، وبذلك ساد ما فيها من قوانين ، القصر الامبراطوري » .

وفي سنة اربع واربعين وستمائة والف ، تعرض كانت قد شبت هناك ثورة ، على الامبراطور المذكور ، الذي كان خاضعا للدولة العباسية فارسل ابو جعفر المنصور ، جيشا مكونا من عشرة آلاف جندي ، لاخماد هذه الثورة ، ولما نجح في اخمادها ، اراد الامبراطور ان يظهر اعترافه بالجميل ، فانزل هذه الجيوش منزلا حسنا ، واسنى لهم العطاء ، فاقاموا عليه ضيوفا ، ثم استقروا هناك نهائيا ، وتزوجوا من الصينيات فكان نسلهم النواة الاولى لهؤلاء المسلمين الذين يستوطنون الصين الآن . . .

ويذكر المؤلف الانجليزي E. H. PARKER ان المسلمين خلال الحكم المغولي ، ما بين سنة ستين ومائتين والف ميلادية وسنة ثمان وستين وثلاثمائة والف ، كانوا يجوبون البلاد الصينية طولا وعرضا ، بكل حرية ، وانهم كانوا ينقلون الميرة منها بكل يسر لـم يعرفوه من ذي قبل ، ولا شك ان اتجاه المسلمين الى الصين ، كان مبكرا ، واسبق مما ذكر من التواريخ ، وان هذا الاتجاه ، كان متاثرا بالحديث « اطلبوا العلم ولو بالصين » ، لهذا يقال ان المسلمين عرفوا البلاد الصينية ، سنة تسع وعشرين للهجرة ، ويظهر ان ذلك كان بطريقة البعوث الاسلامية ، او بطريقة فردية . . .

وفى سنة خمس وخمسين وسبعمائة ملادية ، المسلمون فى الصين ، الى اضطهاد عظيم ، واجرى فيهم حكام الصين « المانتسو » مذبحة شنيعة ، فقدوا بها نفوذهم ، فكان تاريخهم داميا ، الى منتصف القرن التاسع عشر . . .

ولكنهم فيما بعد صاروا ينتعشون ، ويتكتلون ويكونون لهم جماعات، تتمركز حول مساجدها المنتشرة فى عدة جهات من الصين . فصار لكل جماعة مسجد يقع وسط المدينة ، او القرية غالبا يسمى عند الصينيين LI - PAI - SSU وعند المسلمين Ching - chen-ssu فهذه المساجد عادت الى ما كانت عليه فى سالف عهدها، يجتمع فيها المسلمون ، فيدرسون مشاكلهم بها ، كما يتدارسون شؤون دينهم ويؤمونها لاداء الفروض الخمس ويؤذنون على مآذنها Kuang - Ta فيرى هـؤلاء المسلمون ، بالصين ، يسعون الى مساجدهم ، وعلى وجوههم البشر ، وفى قلوبهم سكينة الايمان . والاذان عند الصين HSUAN - LI

وكل الانظمة التي يسير عليها المسلمون بالصين ، مرتبطة بالايمان ، متعلقة باهداب الاسلام ، وكلها يوجهها الذي يسمونه Chiao - Chang او Ahong ثم المفتي SAN-PAN-AHOR, SSU-SHIH-FU والاهونج عندهم رئيس المسجد ، ومهمته القيام بشعائر الدين، والمحافظة على نظام المسجد ، الذي هو عندهم بمثابة «البرلمان» ، الى جانب كونه بيتا من بيوت الله ، والذي يرشح لهذا المنصب ، لابد ان يكون قد قضى بضع عشرة سنة فى الخلافة ، يقوم على تهذيبه خلالها اللاهور ، فاذا نجح فى ذلك ، تقام حفلة لتنصيبه ، تسمى عندهم Kua-Chang وفى بعض الاحيان TSU - CH'UAN ، تتعدى مهمة « اللاهور » الى المواظبة على شؤون جماعتـــه ، والسهر على مصالح افرادها ، على نطاق واسع . . .

اما SSU-SHIH-FU فهو الذي تناط به مهمة تقدير الاجور ، وتوزيع العمل على القائمين به ، والفصل فى اقضيتهم . . . والى جانب هؤلاء ، الخطيب ، والامام الذي يساعد الاهونج فى تنسيق الاعمال ، التي يدعو اليها الخطيب ، وتقرها الجماعة ثم المؤذن ، الذي له مكانة خاصة .

ومناصب الاهور والخليفة ، تنال حسب الترشيح لها ، بشروطها ، اما الباقي ، فربما نيلت مناصبهم بالوراثة ، وفى بعض الجهات من الصين ، فالاهور والخليفة وحدهما، يقومان بجميع الاعمال، من تشريعية وتنفيذية ، وطقوس دينية . . .

وكما توجد مساجد للرجال، توجد مساجد اخرى للنساء ، يصلين فيها، ويدرسن بها شؤونهن، ويستمعن الى الخطيبات منهن ، وقد التحفن باللحاف ، الا انهن لا يحجبن وجوههن ، بل يغطين رؤوسهن ، ويرتدين ملابس تعم ابدانهن . . .

وفى المدن بالخصوص ، يوجد المسلمون الى جانب غيرهم من الصينيين ، دائبين معا على العمل ، وتوسيع النطاق الاقتصادي ، ورفع مستوى الحياة ، فى ظل الاستقلال ، الذي خلق منهم جيلا جديدا ، وصبغهم بصبغة لا يبدو عنها فرق بين المسلم وغيره ، كما يقول المؤلف الالماني HARTINMAN فى كتابه « تاريخ الاسلام فى الصين » ZUR GESCHIGHTE DES ISLAM IN CHINA

والمقاطعات التي يوجد بها المسلمون هي الآتية : نينغسيا ، سينكيانج ، شينسي ، يونان ، هوبي ، متشوريا ، شزتسوان ، شنغاي ، شانتونج ، هونان ، كيانجسو ، شانسي ، هيونان ، كوينشوي ، هوبي ، كوانتونج ، كيانجسي ، فوكين ، تشليانج ، تيبت ، مونغوليا، كنسو، اما الاجناس التي يتكون منها المسلمون فهي فى اغلبها ثمانية :

الخزر، والكرك، والتاجك، والاوزبك، والتونشج والسالة والبوان ، والهوى ، هؤلاء هم الاغلبية الساحقة من المسلمين ، وهناك شعوب اخرى من مختلف البلاد الاسلامية ، من هنود وايرانيين وغيرهم . . .

والجمهورية الشعبية الآن ، توزع الحريات على مختلف الطوائف، ويتمتع فيها المسلمون بكامل نشاطهم، وقد الفوا جمعيات عديدة ، منتشرة فى المدن والقرى ، ولها مراكز فى جميع البلاد ، واهم تلك الجمعيات « الجمعية الاسلامية الصينية » التي تلعب ادوارا هامة فى نشر مبادىء الاسلام ، وتعمل جاهدة على ربط علائقها ، بباقي المسلمين ، خارج القطر الصيني ، ومراكزها هي المساجد التي تبلغ تعدادها الآن اربعمائة الف ، جددوا منها ما كان قديما، واقاموا ـ من جديد ـ بناء الاخرى ، يساعدهم فى ذلك رجال الحكومة ، وما اشد ما تتجلى قوة الاسلام ، فى الاعياد الثلاثة ، حينما يتظاهر المسلمون وهم يسعون الى المساجد بجنودهم ، وتلامذتهم ، وصناعهم ، وغيرهم ، مما يرجى من هؤلاء، ان يزدهر الاسلام على يدهم فى الشرق الاقصى عامة .

والمعاني باقيات

للشاعر
الاستاذ عبدالكريم بن ثابت

قدت نفسي ذات صبح لرياض حافلات
فراينا الورد والفل وكل الزهرات
وسمعنا الطير يشدو بجميل النغمات

قلت للنفس تملي
وانظري ما يخلبني
انه الحب هنا
كامن بجذبني

سخرت نفسي مني ثم قالت قد مضى
قد مضى ما كنت ترجوه وولى وانقضى

ودخلنا في الضحى ومعانيه العذاب
كانت الشمس تهادي فوق امواج السحاب
وجلسنا فى ظلال وتلونا فى الكتاب
كل ما كان ضلالا كل ما كان صواب

قلت يا نفس اقرئي
اقرئي كل المعاني
كم سباني الفكر فيها
من قديم كم سباني

سخرت نفسي مني ثم قالت قد مضى
قد مضى ما كنت تهو آه وولى وانقضى

وارتحلنا في مساء عبر اجواء السماء
نمتلى في نجوم لامعات في الفضاء
غائرات في بحار من بهاء وسناء
نتمنى لجمال الليل دوما وبقاء

قلت يا نفس انظري
روعة الليل البهيم
روعة كم ذا سبتني
حيث انستني الجحيم

سخرت مني نفسي .. ثم قالت قد مضى
قد مضى ما كنت تهواه وولى وانقضى

وتنبهت فالفيت محيا يلمع
وعيونا ذات سحر رائعات تدمع
فتنة روعتها الحسن وسحر اروع
تتهادى كملات فيجنان يرتع

قلت يا نفس انظري
انظري الوجه الجميل
انظري الروعة فيها
وانظري الطرف الكحيل

سخرت مني نفسي ثم قالت قد مضى
قد مضى ما تتمناه وولى وانقضى

آه ما هذا ؟ الم يبق لدى الكون جمال ؟
اخبت فيه المعاني وذوى السحر الحلال ؟
اين ما تقتنا اليه من تمام وكمال ؟
اين ما كان لدينا رمز خلد ومثال

قلت نفسي خبريني
يا ترى ماذا العمل
انه يسرى مميتا
سأم كم ذا قتل

سخرت مني نفسي ثم قالت قد مضى
قد مضى عهد خيال ثم ولى وانقضى

وانبرى صوت نبي كان في العهد القديم
قال اني عشت دهرا في هناء ونعيم
وملكت الارض والناس وما فوق الاديم
فاذا الكل هواء قبض ريح يا كريم

لا تسل نفسك عما كان يوما او يكون
سوف يفنى العقل يوما مثلما يفنى الجنون

قالت النفس اخيرا سوف نفنى وحدنا
والمعاني باقيات خالدات بعدنا

عوامل اختفاء المذهب الاسماعيلي من افريقية الشمالية

للأستاذ
محمد الناصري - باريس



هل انتشر المذهب الاسماعيلي في افريقية الشمالية ؟ .
وهل كان قيام الدولة الفاطمية فيها ثمرة انتشار هذا المذهب ؟ .
هل تعمق البربر في فهمه والاحاطة بما يحتوي عليه من تشريعات ونظريات اجتماعية وسياسية واقتصادية ؟ .
لماذا اختفى منها دون ان يخلف في المحيط العقائدي بعض الرواسب ؟؟؟

لنحلل هذا المذهب اولا ، ولنحاول بعد ذلك ان نتعرف على مختلف الاتجاهات للاجابة على هذه الاسئلة الحائرة .

الاسماعيلية احدى فرق الشيعة ، وتسمى ايضا الامامية ، لان انصارها كانوا يسندون الامامة بعد الامام السادس جعفر الصادق الى ابنه اسماعيل الذي نسبوا اليه ، واحيانا تدعى الباطنية التزاما لمذهب التقية الذي كان له دور فعال في نجاحهم في مختلف المراحل التي مروا بها ، فالامامة عندهم مختفية ، وليس في وسع كل امام منهم الظهور ، الا بعد ان يانس من نفسه الاستعداد وحين انس عبد الله المهدي ان جانبا من القوة يسنده اعلن نفسه واسس الدولة الفاطمية ...

وقد بني المذهب الاسماعيلي على اسس هي نفس الاسس التي بنى عليها المذهب الشيعي بصفة عامة ، وهي المهدية والرجعة والتقية والعصمة ... وكان للاسماعيلية اتجاه خاص في التشريع الاسلامي ، لان المصادر التي كانوا يعتمدون عليها في هذا التشريع هي القرآن بالتأويلات والتفسيرات التي يختارونها ، والتي تتلاءم مع اهدافهم ، والسنة برواية الشيعة ، وحديث الامام المعصوم الذي يتلقى الوحي والالهام ، وقد وضعوا نظاما اشتراكيا خاصا يهدف الى نزع الملكية الكبيرة ، وتوزيعها، كما كانت لهم آراء خاصة في العلاقة الجنسية بين الرجل والمراة .

وقد نشا المذهب الشيعي بصفة عامة في اول خلاف على اسناد الخلافة بعد وفاة الرسول عليه السلام ، وكان من راي انصاره احقية علي بالخلافة وفي اعقاب خلافة عثمان ظهر هذا المذهب الى حيز الوجود بعد أن ساعدت عوامل كثيرة على ارساء دعائمه.

ونستطيع أن نلمح من خلال هذه النظرة السريعة على المذهب الاسماعيلي ، آثار بعض الديانات والمذاهب التي كانت منتشرة لدى الفرس ، مثل الزرادشتية والمزدكية والمانوية وغيرها ... ويسود هذا المذهب كثير من التناقض ، لانه مر بمراحل مختلفة في تكوينه ، فلم يستقر في اول هذه المراحل على اتجاه معين ، كما يسوده الغموض ايضا ، لان الادوار التي مر بها كانت تحتم على الدعاة اليه احاطته بسياج من الكتمان .

وليس يهمنا ان نتعمق في تحليل مختلف العناصر التي تكون منها هذا المذهب ، وارجاعها الى مصادرها الاولى التي انحدرت منها ، وانما المهم ان نحاول استجلاء هذه الحقيقة . وهي :

هل كان نجاح الفاطميين في اقامة دولتهم بافريقية الشمالية نتيجة انتشار هذا المذهب ، ام ان هناك عوامل اخرى حققت هذا النجاح ؟ .

حاول بعض المؤرخين بحث هذا الموضوع ولكنهم لم ينفذوا الى اغواره ، ولم يكتشفوا مجاهله ، فخرجوا بنتائج فجة متهافتة لا يسندها منطق ولايعززها برهان. وسنعرض هذه النتائج بعد ان نلقي بعض الضوء على الظروف التي عاصرت المذاهب ، والنحل التي اخذت تفد من المشرق في الفترة التي تمكن فيها الاسلام من نفوس البربر ، لنستشف من خلال اشعته بعض الحقائق التي نرجو ان تقودنا الى راي سديد .

بعد صراع مرير تغلغل الاسلام في نفوس البربر ، حينما لمست مبادئه شغاف قلوبهم ، فاختفى ما كان يبدو عليهم من نفور من العرب ، واصبحوا يشعرون شعورا صادقا انه لا فرق بينهم وبين العرب ، على الرغم من طموحهم الى الاستقلال ، وتبنى الرسالة التي حملوها اليهم ، وهكذا اصبح الاسلام يربط بينهم وبين العرب في المشرق، واخذت اصداء احداث المشرق تتردد في مجتمعاتهم، ومن جملة هذه الاحداث حركة الخوارج، فقد رن صداها في مجتمعاتهم وسرعان ما اقبلوا عليها في اواخر القرن الاول للهجرة ، وكانت خوارج افريقية الشمالية اباضية وصفرية ، ويبدو ان بعض اذكياء البربر كانوا قد اندفعوا اليها لحمل راية العصيان في وجه حكومتهم ، ولكن الباقين كانوا قد اندفعوا اليها لانها توائم طبائعهم الثورية النزاعة الى الحرية .

ولم يتبلور المذهب الشيعي عندهم في صورة معتقدات ، غير ان ما تناقل الى اسماع البربر عن النكبات التي حلت بالعلويين من جانب الامويين والعباسيين ، جعلهم يعطفون على العلويين ، وقد بدت مظاهر هذا العطف حينما هاجر ادريس العلوي الى المغرب ، اثر نجاته من وقعة فخ ، اجل بدت في الحفاوة البالغة التي استقبله بها البربر ، وفي موقفهم من مبايعته على الامارة .

هذا الموقف الكريم يبرهن على ان التشيع للعلويين ، كان قد ظهر قبل رحيل داعية الاسماعيليين ابي عبد الله الشيعي الى افريقية الشمالية ، لنشر دعوة الفاطميين ، وانه كان مجرد عطف وحب لسلالة فاطمة للاسباب السالفة .

وفي اعقاب الدولتين ؛ الاغلبية بتونس ، والادريسية بالمغرب ، رحل ابو عبد الله الشيعي الى افريقية الشمالية ، وقد استطاع بحذقه ودهائه ان يؤسس فيها دولة الفاطميين او العبديين ، وهنا يحق لنا ان نتساءل : هل انتشر المذهب الاسماعيلي بخطوطه حقيقة بين البربر ، وعلى اساسه قامت دولة الفاطميين بافريقية الشمالية ؟ ام ان هذه الدولة قامت على اساس العطف والحب كما راينا اثناء قيام الدولة الادريسية بالمغرب ؟ .

يرى الدكتور حسن ابراهيم في كتابه (الفاطميون في مصر) ان من الغريب ، ان اكثر سكان البلاد التي قام فيها الاسماعيليون بنشر مذهبهم لا يزالون متمسكين بعقائد هذا المذهب ، الا سكان بلاد المغرب ، حيث لم يبق للاسماعيليين بقية ، وقد علل اختفاء هذا المذهب بينهم اعتمادا على راي للاستاذ ماسينيون : بجهل البربر ، وعدم استعدادهم لفهم درجاته المختلفة المتدرجة في الصعوبة ، كغيرهم من اهالي الاقطار الاخرى ، كفارس ، ومصر ، التي يمتاز اهلها بالحضارة وسمو الفكر ، ويرى ايضا ان البربر لم يكن لهم السبيل والاستعداد للاخذ باهداف الحضارة الاسلامية التي اوجدها العرب في صدر الاسلام ، ولو اخذ البربر بحضارة العرب لكان في ذلك قبول لحضارة الفاتحين .

تلك هي النتائج التي انتهى اليها المؤرخون لتعليل اختفاء المذهب الاسماعيلي في افريقية الشمالية ، وتتلخص في جهل البربر وعدم استعدادهم لفهمه وعدم قدرتهم على هضم الحضارة العربية ، ولو اننا اتفقنا مع الراي القائل : ان الحضارة عبارة عن الظواهر الثقافية والفنية والمعنوية لحياة المجتمع مع اشتراط عمق هذه الظواهر في اغوار التاريخ ــ لجردنا العرب من حضارتهم اذ ليست جذورها ممتدة في اعماق الزمن ، وانما استمدوا بعضها من جوهر الاسلام بعد ظهور الرسالة المحمدية ، واستمدوا الباقي من الهند وفارس واليونان، بعد ان قطعت الفتوحات الاسلامية شوطا بعيدا في تاريخهم ، ولو اننا اتجهنا الى المعنى المتعارف للحضارة وانها من شيمة المجتمع الانساني ، وبها يتميز عن مجتمع الحيوانات ، وانها فضلا عن ذلك مجهود انساني ضخم تضافرت اجيال الانسانية على تشييده منذ فجر تاريخ الانسانية ــ لو اننا اتجهنا الى هذا المعنى المتعارف للحضارة ، لوجدنا البربر لهم حضارتهم ايضا ، على اننا نعلم من تاريخ البربر انهم لم يهضموا الحضارة العربية وحدها ، بل تمثلوا حضارات اخرى قديمة قبل اتصالهم بالعرب ، ومن بينها حضارات الفينقيين والرومان . . .

ويبدو ان التعليل السليم لاختفاء المذهب الاسماعيلي من افريقية الشمالية ، انه كان يحتوي على نظريات اشتراكية متطرفة ، ترمي الى نزع الاملاك الكبيرة من ايدي اصحابها وتوزيعها بالتساوي ، ولم يكن للبربر استعداد لتطبيق هذه النظرية ، ومن المعروف ان الاقطاعية كانت منتشرة بينهم ومستقرة في بيئتهم .

ويضاف الى هذا العامل ، ان المذهب الخارجي كان اسبق الى الظهور بين البربر من المذهب الاسماعيلي ، فكان مناهضا له ، لانه كان مذهبا موافقا لامزجة البربر ونزعاتهم الحرة .

على ان الفاطميين لم يبرعوا في الدعوة لمذهبهم ، الا بعد ان استقرت خلافتهم في مصر ، واذ ذاك سلكوا المناهج العلمية لنشر مذهبهم ، فحين شيد الازهر اتخذوا منه ناديا لنشر دعوتهم باسلوب علمي منظم . . .

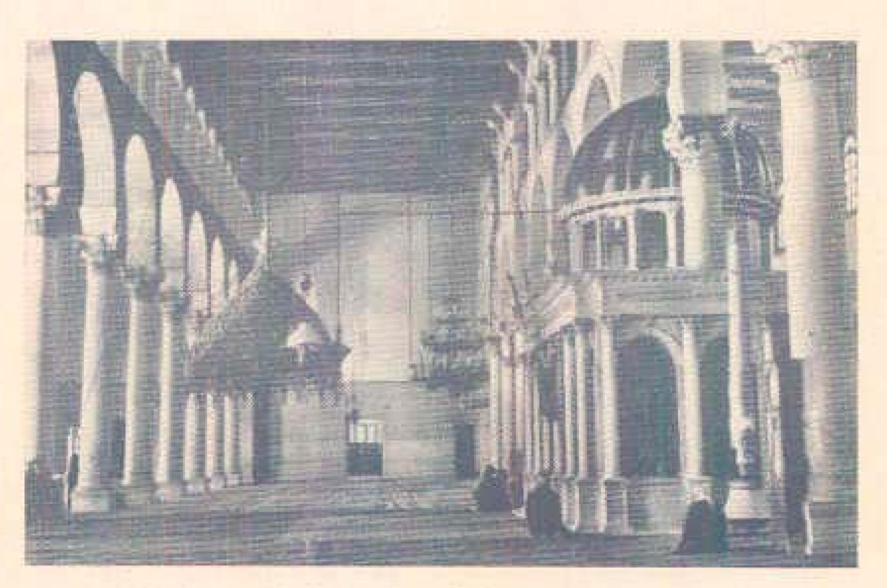
وقد كان للتصرفات التي كانت تصدر عن الدعاة لهذا المذهب اثر سيء بين البربر ، لانهم كانوا يحاولون ان يحملوا الناس عليه بالقوة ، وباساليب شتى من الارهاب والاستبداد ، ومما لا شك فيه ان المذاهب والمبادىء لا تنتشر بالارهاب والقوة ، بل بالتبشير والاقناع ، وقد كان ارهاب هؤلاء الدعاة منفرا للبربر من هذا المذهب ، ويروى التاريخ امثلة كثيرة لهذا الارهاب ، ففي خلال سنة 306 هـ قتل هؤلاء في القيروان (عروسا) المؤذن بعد ان ضربوه بالسياط وقطعوا لسانه ، حين علموا انه لم يذكر في اذانه (حي على خير العمل) وهي احدى شعارات الاسماعيليين .

ثم ان ما كان يبدو على المذهب من تناقض ومخالفة لتعاليم الاسلام التي الفوها ، ومن ادعاء انصاره ان امامهم محيط باسرار المغيبات ، كل هذه الاشياء جعلت البربر يتخذون منه ومن دعاته مادة لسخريتهم ، فقد وقف يوما (على المروزي) والناس حوله ، وقال لابي عبد الله الشيعي في احدى مجالس دعوته (لقد لطفت لنا – اصلحك الله – في قطع قيام رمضان ، فهلا احتلت لنا في ترك صيامه وكفيتنا مئونته) وقد كتب بعض احداث القيروان هذين البيتين ، وتلطفوا في وصولهما الى عبيد الله المهدي من حيث لا يعلم :

الجور قد رضينا	لا الكفر والحماقة
يا مدعي الغيوب	من كاتب البطاقة

فاشتد ذلك عليه ، وبحث سرا عن كاتبه فلم يعثر عليه .

وهكذا نرى ان اختفاء المذهب الاسماعيلي لا يرجع الى قصور البربر عن الاحاطة بما يحتوي عليه من نظريات متدرجة في الصعوبة ، على اننا نجد كثيرا من البربر قد تعمقوا في فهم هذا المذهب ، بل وتاثروا به ، ولعل في الحركات المتكررة التي قام بها مدعو المهدية – وهي احدى اصول المذهب الشيعي – ما يلقي ضوءا على هذه الحقيقة ، ففي مختلف ادوار تاريخ البربر نجد الكثير منهم قد انتحلوا لانفسهم اسم المهدي المنتظر الذي خرج ليملأ الارض عدلا بعد ان ملئت جورا .



المسجد الاموي بدمشق : آية من آيات الفن العربي الاسلامي
بناه الوليد بن عبد الملك بن مروان ، زاره في خلافة عمر بن عبد العزيز سفير من روما ، فاعجب به وقال لمن معه : انا معشر اهل رومة نقول ان بقاء العرب قليل ، فلما رايت ما بنوا علمت ان لهم مدة لابد ان يبلغوها .

الأمير عبد القادر بن محيي الدين الحسيني

للأستاذ عبد القادر القادري

في مثل هذا الشهر من سنة 1883 لفظ بطل من ابطال المغرب الاسلامي آخر انفاسه ، وبمناسبة هذه الذكرى رايت من الواجب الاكيد ، ان اعطي نظرة تاريخية خاطفة عن حياته وعن كفاحه المستميت ضد المستعمر الغاشم فاقول :

ولد الامير عبد القادر بن محيي الدين بن مصطفى الحسيني في شهر مايو سنة 1807 في قرية القيطنة التابعة لايالة وهران ، ولما بلغ من العمر 14 سنة سافر الى وهران ، لاستكمال العلوم من فقه وحديث وهيئة وتاريخ وفلسفة . وفي نونبر سنة 1825 صحب والده الى الحرمين لاداء فريضة الحج ، وعرجا بعد الحج على دمشق ، فامضيا فيها زمنا ، وسارا منها الى بغداد فنالا كل رعاية واكرام ، ثم عادا من هناك الى الحرمين ثانية ومنهما الى وطنهما ، فوصلا في اوائل سنة 1828 .

ولما انزلت فرنسا جيوشها في التراب الجزائري في 6 يوليه سنة 1830 ، ولم تستطع تركيا التي كانت فقدت اسطولها في معركة نافارين ، ان تحرك ساكنا ، وتركت شعب الجزائر يواجه وحده مصيره ، وقد تذرعت فرنسا لغزو الجزائر بحجة اهانة قنصلها بمروحة من تلك المراوح التي تحملها الايدي للتهوية في الطقس الحار ، وسادت الفوضى في البلاد بسبب الغزو الفرنسي الذي اهلك الحرث والنسل ، اجتمع المرابطون ورؤساء القبائل ، وفي جملتهم الامير محيي الدين والد الامير عبد القادر ، وتشاوروا في الامر ، فقر رايهم على الانضمام الى سلطان المغرب اذ ذاك المولى عبد الرحمن ، ووافقهم على ذلك ، فدخلت الجزائر في سلطانه ، وخطب الجزائيون له في المنابر وبايعوه ، فغضب الفرنسيون لذلك وهددوا المولى عبد الرحمن بالحرب ، فانسحب الجيش المغربي من الجزائر .

حينئذ اجتمع كبار اهل الجزائر وبايعوا الامير عبد القادر ، وكان يحارب الفرنسيين في مكان يقال له حصن « فيليب » ولما قويت شوكة الامير عبد القادر وخافت فرنسا من التخلي عما استولت عليه ، او عزت هي الى الجنرال فيشل ، ان يعقد مع الامير عبد القادر معاهدة صلح ، فخابره في ذلك ، وتمت المعاهدة سنة 1834 . فتفرغ الامير عبد القادر لاصلاح الشؤون الداخلية في بلاده ، والى الاستعداد للحرب ، ثم انشا مدينة دعاها « تقدمة » وانشا كثيرا من المعاقل ، وضرب نقودا فضية ونحاسية نقش على احد وجهيها « **هذه مشيئة الله وعليه توكلت** » وعلى الوجه الآخر « **ضرب في تقدمة السلطان عبد القادر** » ولكن فرنسا لم يهدا لها بال ، فاعلنت الحرب من جديد ، وحشدت قوات كبيرة بقيادة الجنرال تريزل الذي اسرع بالالتحاق بالقوات الجزائرية .

وظل النصر حليف الامير عبد القادر الذي هزم هذه القوات هزيمة منكرة ، الامر الذي دعا فرنسا الى عزل هذا القائد وتعيين المريشال « كوزيل » خلفا له انقاذا للموقف ، ودامت الحرب عدة اشهر بين الفريقين ... وكانت سجالا ، ولما فدحت خسائر الفرنسيين فيها ، اضطر القائد الفرنسي الى طلب الهدنة من جديد ... فعقدت معاهدة « تافنا » التي خول للامير عبد القادر بموجبها استيراد الاسلحة من اي مكان .

ولكن فرنسا مرة اخرى لم تهدا ، فاسرعت بشن الهجمات على الولايات الشرقية ، واستطاعت قواتها ان تحمل حاكمها « الباي احمد » على الاستسلام الذي جاء نتيجة لعدم سماعه لنصائح الامير عبد القادر . الذي كان الح عليه في عقد محالفة دفاعية معه ، وتوحيد القوات العاملة تحت قيادتهما معا .

وبعد انتصار الامير عبد القادر في معركة وادي مقنة اصدر علماء فاس فتوى اجازوا بها للامير عبدالقادر جباية الضرائب باسم المولى عبد الرحمن لمتابعة حرب التحرير .

وفي سنة 1839 عند ما كانت الجيوش المصرية تحت قيادة محمد علي تطرق ابواب القسطنطينية عاصمة الخلافة الاسلامية آنذاك ، ارسل الامير عبد القادر رسالة الى المريشال الفرنسي « فالي » ينذره فيها بوجوب جلاء الفرنسيين عن الجزائر كلها .

ولما عادت القوات المغربية الى الجزائر سنة 1844 لتحارب بجانب اهل الجزائر القوات الفرنسية ، ارسلت فرنسا ثمان وعشرين قطعة بحرية من اسطولها الى مياه طنجة والصويرة ، وراحت تنذر السلطان المولى عبد الرحمن بوجوب التخلي عن الامير عبد القادر ، وسحب القوات المغربية من الجزائر ، فرفض السلطان مولاي عبد الرحمن انذارها ، فصبت جيشئذ البوارج الفرنسية حممها على مدينتي طنجة والصويرة ، وهجمت الجيوش الفرنسية الجرارة على الجيش المغربي ، فذهل هذا الاخير من هول مفاجاة استخدام المدافع بكثرة في الميدان مع ان جله من الفرسان ، فاضطر المغرب الى قبول عقد الصلح بعد هذه المعركة المعروفة « بمعركة اسلي » فتفرغت القوات الفرنسية من محاربة المغاربة ، وتوجهت بكليتها الى محاربة قوات الامير عبد القادر ، وبقيت الحرب سجالا بينهما الى ان اعلن الامير عبد القادر استعداده للاستسلام بسبب فقده كثيرا من رجاله في ميدان الوغى ، وبعد ان امضى في القتال سبعة عشر سنة فسلم نفسه للجنرال (لاموريسيير ، بسيدي ابراهيم ، ولكنه اشترط ان يسمح له بالانسحاب مع عائلته الى عكا او الاسكندرية ، فابحر الى فرنسا وانزل في طولون ، ثم قيد الى سجن في قصر (بو) في ابريل سنة 1848 ثم الى سجن في قصر (امبواز) في اكتوبر 1848 ثم اطلق سراحه ، ونقلته باخرة فرنسية الى القسطنطينية ، حيث احتفل به السلطان عبد المجيد احتفالا عظيما ، وفي سنة 1854 انتقل الامير الى دمشق وتلقاه اهلها بحفاوة بالغة .

ولما وقعت الاضطرابات بدمشق سنة 1860 وتوجه المتظاهرون الى الحي المسيحي ، قام الامير عبد القادر منتصبا للدفاع عن المسيحيين ، فانقذ منهم الكثير من الموت المحقق ، فالتجا الى قصره قنصل فرنسا لانيس ، ويقدر عدد المسيحيين الذين نجاهم الامير عبد القادر من تلك المذبحة باثني عشر الف مسيحي ، ولما عاد الهدوء الى دمشق ، جمع المسيحيين الملتجئين اليه ، والفهم قوافل سارت تحت حراسة الجزائريين المقيمين اذ ذاك بسوريا ، الى ان بلغت لبنان ، ومنها ابحرت الى فرنسا تحت بعثة الجنرال الفرنسي « دوبورد دو تيول » في اواخر غشت سنة 1860 . وبقي الامير عبد القادر مقيما في دمشق الى ان وافته منيته في مارس سنة 1883 م فدفن بمقام الشيخ الاكبر محيي الدين بن العربي في الصالحية ، تغمدهما الله برحمته واسكنهما فسيح جنانه .

وللامير عبد القادر في التصوف كتاب سماه المواقف — وله كتاب آخر اسمه ذكرى العاقل وتنبيه الجاهل ولله در الشاعر ابن بابا صالح حيث يقول :

فعبد القادر البطل المفدى
رأى شعبا يئن له فقادا
تولى الضرغم الجبار اسدا
يطارد خصمها وادا فوادا
يدك جحافل الاعداء دكا
ويجلي عن اراضيه الفسادا
باقدام الشباب — وكان منهم
وعزم باتر حتى الجمادا
وهمة من تعرف بالليالي
فلا يخشى الوهاد ولا السوادا
اذا اعترض الجبال له طريقا
يشق بها الطريق كما ارادا
ويشتد العدو عليه حينا
لبوهنه فيزداد اشتدادا
كسيف صارم في النار يحمى
فتكسبه مضاء واتقادا
فلو خبرت عنه حين تسرى
الطلائع نحوه تطوى البعادا
اذن لرايته يكمى دهاء
واحيانا يهاجمها اعتدادا

« فنهر المقطع » الطلق المحيا
شهيد لو نسائله افادا

كذا قضت تلمسان افتخارا
بطولة خير من ركب الجيادا

لقد وردوا مغانيها جموعا
فاجلاهم وشتتهم فرادا

فما استطاعت فرنسا منه نيلا
وقد دارت معاركها شدادا

ارادت قطفه وردا ذكيا
ولكن لم يكن الا قتادا

وردت بلعه لحما طريا
فكان العظم يابى الازدرادا

لقد زفت له الدنيا عروسا
فلم يحفل بليلى او سعادا

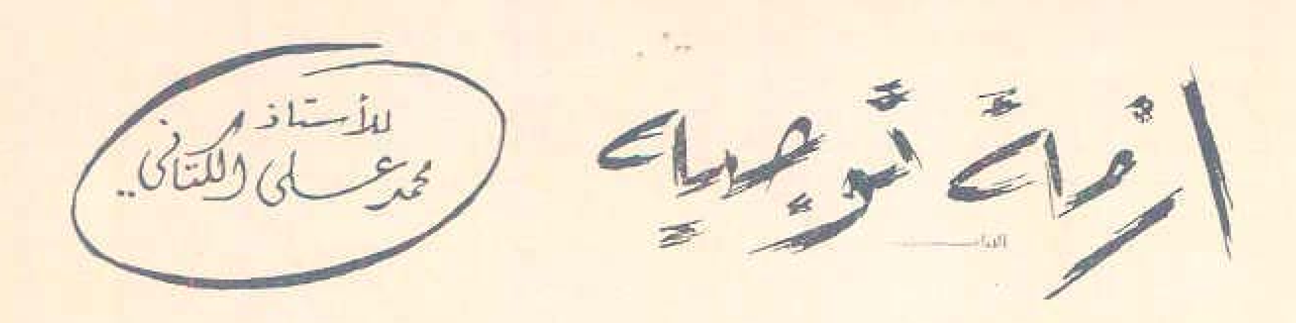
واضحى همه سحق الاعادى
وان تحيى البلاد كما ارادا

فانت الليث للاشبال هلا
ترى الاشبال ترضى ان تصادا !

وها هم اشباله يواصلون منذ نوفمبر سنة 1954 ثورتهم المباركة ، التي هي امتداد لثورته الكبرى التي بداها هذا البطل الافريقي منذ اكثر من 127 سنة ، ولن تنتهي الا بانتصار الجزائر ان شاء الله .



الامير عبد القادر الجزائري



كثر الحديث في الايام الاخيرة عن الانحلال الديني، الذي اصبح يسيطر على الشباب ، ويطغي على بعض طبقات الشعب ، والذي يتنافى مع تقاليدنا التي عرفنا بها ، ويتصادم مع اوضاعنا الاسلامية التي عرف المغاربة بتمسكهم ومبالغتهم في المحافظة عليها .

فالفرد منا اضحى يتجاهل امور دينه ، ويتعامى عن شؤون شريعته ، والمساجد التي كانت تكتظ بالمصلين ، اصبحت فراغا او كالفراغ ! وايام الجمعة التي كان المؤمنون يتسابقون فيها الى الصفوف الاولى، اعتراها نوع خمول ... واصبح المسجد لا يرى الحركة الا والخطيب على وشك الخروج... وحتى اذا سرحت طرفك في الجموع المتراصة ، لم تجد الا الصانع والعامل ومتوسط الحال ، كأن الجمعة لم تعد فرضا الا على هؤلاء ... !!

ويتشاءم الكثير من هذه الحالة التي تنذر بالخطر، وتبتعد بنا عن تلك الرابطة التي جمعت بيننا ، ووحدت صفوفنا وقفزت بنا الى الامام ، وقضت على العنصريات والعصبيات ، وكانت الوقود الذي دفع بحركاتنا الوطنية قدما حتى نالت النجاح المرموق والفوز المنشود ... ويمضي المتشائمون فيرجعون ذلك الى اسباب ، ويعزون هذا التراجع الى نقص في التوجيه ، وضعف في العقيدة ، وميل الى التقليد .

ونحن وان كنا نؤمن ببعض هذه المظاهر ، الا اننا لا نغالي في تشاؤمنا ولا نمضي فيه الى هذا الحيز من التهويل ، فما زلنا نعتقد ان حاسة الدين عندنا قوية جدا ، وان العقيدة الكامنة في نفوسنا لا تستطيع اية قوة مهما بلغت من التنظيم والعدة ، ان تقتلع جذورها، او تكتم انفاسها الى الابد، بل كل ما هناك ان البلاد تقطع في سيرها الطبيعي مرحلة صعبة ، وتجتاز حالة اجتماعية لا مناص منها ... هي مرحلة انتقال بين عهود ... والامة في تكيفها بمظاهر هذه العهود ، تتزيى بأزياء تقيسها الواحد اثر الاخر ، وتنتقي لنفسها الزي المناسب . وتغفل بطبيعة التجربة زيها الاصلي ، فاذا انتهت فترة المقاييس وتمت مرحلة التجاريب ، وتيقنت بانها اختارت ما يتلاءم وطبيعتها عادت الى جوهرها الاصيل واحتضنته من جديد ، وسارت به مزهوة نشيطة

... لذلك فمن الطبيعي ان سير المغرب السريع سيحطم بعض الشوامخ التي ينبني عليها عزه ، وتقوم عليها امجاده ، ولكن اصلاح ما انهدم وتجديد ما اندثر ، ليس صعبا في حد ذاته . والتاريخ خير شاهد على ما نقول ، فقد اجتازت بعض الشعوب محنا من هذا القبيل، وتغلبت على العواقب الحضارية ، وخرجت من الامتحان بسلام .

لكن هذا لا يمنعنا من ان نلاحظ ان مرحلتنا نحن صعبة . واننا اذا لم نعالجها بالحكمة والصبر والثقافة فاننا سنخسر الصفقة ، فالواقع اننا من الشعوب – اذا اردنا الصراحة – التي تندفع اندفاعا ، سواء في توثبنا الى الخير او انحرافنا عنه الى غيره . فحركتنا لا تعرف الحدود او تقف عند القيود ! بل تغامر غير حاسبين لاي شيء حسابه . وما دامت هذه الروح تسيطر علينا فلا مناص من الاعتراف بان الحالة خطيرة، وتستدعي علاجا مناسبا ... ومن هنا وجب ان نبحث عن المشكل الحقيقي ونرد الاشياء الى حقائقها ، ونوضح الظروف والملابسات التي عملت وتعمل على سيرنا في هذا الطريق المنحرف ، وبمعرفة ذلك نستطيع ان نضع ايدينا على الوتر الحساس لكل ما نتخبط فيه .

اعتقد ان المسؤول الاول عن هذا هو :

1) التربية الدينية : فقديما كان للآباء نفوذ قوي على ابنائهم ، وكانوا يسيرونهم حسب الاتجاه الديني ، ويغرسون في نفوسهم الايمان ، ويعودونهم على التخلق باخلاق الدين ، فينشأ الطفل وهو يرى اباه يصلي وعائلته تتدين ، فيتعبد بالسليقة ويؤمن بالتقليد ، ثم يتعود على ذلك تدريجيا فيصبح مؤمنا ... وكانت الكتاتيب والمدارس لا تشتغل غالبا الا بامور الدين – ودعك هل كان ذلك حسب الاتجاه السليم أم لا – فيحفظ القرآن ويتلى وتدرس العلوم الموصلة الى فهمه ...وكانت الجماهير تأنف من كل عمل يتنافى مع الدين ، وحيث كان وعيهم من هذه الناحية قويا ، فما ان يسمع صوت المؤذن حتى يترك كل ذي عمل عمله ، ويهرع الى بيت الله ليؤدي واجبه ... فماذا اصبح الآن ؟ .

لقد ضعفت سلطة الآباء ، وترك للابناء الحبل على الغارب . وحتى اذا أراد الاب ان يفرض ارادته نعت بانه رجعي متزمت ، واوشكت ازمة عائلية ان تقع . . . ونقصت التربية الدينية فى المدارس — وهذا أمر ملحوظ — لطغيان المواد الاخرى ، وتهاون القائمين بتلك الحصص الدينية ، لاعن قصد منهم ، بل لقصر المدة اصبحوا لا يعطونها ما تستحق من اهتمام ، متناسين انهم مسؤولون عن افئدة ، بامكانهم لو صبروا وصابروا لانشأوا منها جيلا صالحا. فالتعليم الديني المبكر مفيد ومهم جدا . فالطفل يستطيع ان ينمي — كما تقول هرليتك — الشخصية الصالحة بان يعرف ان عليه ان يفعل اشياء كثيرة لم يكن ليفعلها بطبيعته ، بل قد يكرهها فى الواقع، والاطفال عادة لا يميلون الى النظام ، كما ان قصورهم الذاتي فى اكتساب العادات الصالحة ، يتطلب كل مجهود مستطاع للتغلب عليه، والدين هو أعظم مصدر للمساعدة فى هذه الناحية ، لا من وجهة النظر النفسية فحسب ، بل من وجهة نظر الادراك السليم .

ان الايمان بالله وتعاليمه وبالانبياء يزود الآباء بثقة وسلطان على اطفالهم لا يتاحان لهم من اي مصدر آخر . ويزيد هذا العالم النفساني فيقول :

ان الطفل الذي غرس فى عقله فى وقت مبكر ، ان الله موجود كحكم اعلى بيده الخير والشر ، قد اكتسب فى الواقع الدافع الاساسي لاكتساب العادات الصالحة وتنميتها ، وبدلا من ان يكون اساس عمله للاشياء هو حبه لها او عدم حبه، يصبح الاساس هو الخطأ والصواب الخ . . . والجمهور هو الآخر طغت عليه الشؤون المادية واغوته مصالحه الدنيوية فانغمر فيها بقلبه ووجدانه ، وانغمس فى حساباته وشبكاته . . . فلينادِ المنادي فهو فى غفلة عن ذلك كله ! !

2) تكاليف الحضارة : فالمدنية ليست خيرا كلها، فهي كما تحمل الرقي والعظة تحمل بعض السموم ، ولست ارى أن الدين يتنافى مع الحضارة ، بل ان الدين الصحيح حضارة . وفهم هذه الحضارة او تفسيرها هو الذي يوقع الناس فى الزلل . . . والواقع ان التقدم الحضري يحمل الشخص اعباء ، ويفرض عليه واجبات ، وطعم هذا التقدم بعض الملذات والملاهي التي لا تستطيع النفس التجافي عنها ، بل تميل اليها وتقبل عليها — وهي كما قال الله تعالى أمارة بالسوء — ولا تحتاج الى واعظ يعظها ، او مرشد يرشدها ، بل تسارع مدفوعة بعوامل لاقبل لاحد بمقاومتها ، الا من رزق اليقين ، وقليل ما هم .

ولست احب ان اشرح هذا الموضوع باكثر من هذا ، فحسبي ان اوضح أن تكاليف المدنية شاقة !

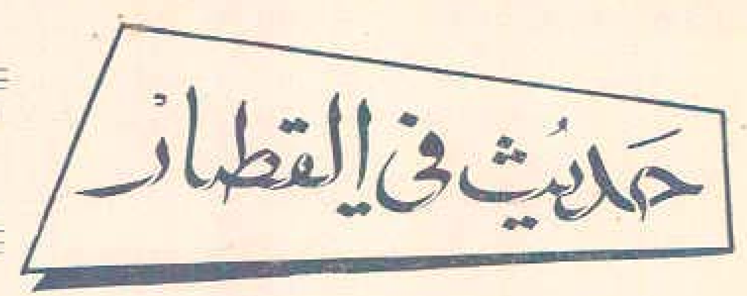
3) التيارات الحديثة التي تجتاح العالم اليوم ، فطغيان الاحداث يجعل الانسان فى حيرة من امره، وكان المغرب قديما فى عزلة عن العالم ، وجنت عليه هذه العزلة شرا حيث نكب بالاستعمار فهل سنبقى بعيدين عن العالم وما يجري فيه ؟ اعتقد ان ذلك ليس بنافع . والعالم يتمخض كل يوم عن جديد ، والأحداث تتجدد ساعة بعد ساعة ، ولا محيد لنا عن التأثر بذلك احببنا ام كرهنا ، خصوصا بعد ان ضاقت رقعة الدنيا ، واتصل الاقاصي بالاقارب ، فلم يعد الانسان اقليميا يتأثر بعوامل بيئته ومحيطه ، بل اصبح عالميا ما يقع فى اقليم يؤثر فيه طردا وعكسا . . . ومن هنا سهل على التيارات المذهبية ، او على الاصح العقائد المذهبية ان تقفز الينا ، وان ينجذب اليها شبابنا ، وان نراها تجد بين اظهرنا مكانا ، وان لم يكن الآن واسعا فسيكون فى المستقبل اذا لم نأخذ العدة .

فهناك الاشتراكية بتهاويلها التي تفتن العقل وينجذب اليها الفكر ، وتسيطر على احساس المؤمنين بالعقل المحكمين لطاقته ! .

وهناك الشيوعية بنظامها الانتاجي ومساواتها للافراد وهدمها للملكية الشخصية ودعايتها الصاخبة !. وهناك النزعة السارترية التي تميل الى منح الحرية للفرد كفرد ، وتتيح له ان يتحكم فى مصيره بعيدا عن كل تقييد !.

وهناك القومية ، والراسمالية وسواهما لانحب ان نخوض فيه الآن ، وانما همنا أن نوضح ان هذه النزعات اخذت من تفكير شبابنا حيزا كبيرا ، واستطاعت — فى غفلة من القوامين على الدين فى هذه الديار — ان تكسبهم الى صفوفها ولو الى حين .

ولست احب ان ابين موقف الاسلام من هذه النزعات ، ولا ان ارد على هذه التيارات . فالاسلام دين لا يحبذ الا الفضيلة ولا يؤله الافراد ، وهو لم يجعل لطقوسه كهنوتا ولا طبقة ما يسمى برجال دين . فكل افراده رجال دين . ومن هنا وجب ان تكون الصلة بينهم وثيقة ، وان يتعاون المجموع على اصلاح ما اعوج، وتنظيم ما يستحق التنظيم . وان الدعوة الى هذا الدين الحق تتطلب صبرا وعلما وايمانا وثقة ، ورجالا من صنف خاص ، لا من هذا الصنف الذي نجده فى واعظينا فالواعظ عندنا يكاد يكون جاهلا بما يتجاوز حدود بيته، فكيف بامكانه ان يقنع شابا درس الفلسفة الماركسية ، ونهل من عباقرة التفكير ! وهل يدخل هذا الشاب الى المسجد ليجد خطيبه يحدثه عن الموت فى اسلوب العصر الرابع ذي السجع المصطنع والروى المفتعل . فالواقع ان الازمة هي ازمة توجيه . . . توجيه يجب ان يتسم بطابع يحوي كل شيء . توجيه بناء قوي متزن علمي متين . فالواعظ حين يقف على منبره يجب الا يتقيد الا بما يلمسه فى وجوه المستمعين اليه ، وان يخاطب احساسهم وعاطفتهم ، وان يبعثهم بعثا جديدا بما يغرسه فى نفوسهم ، فينطلقون من المسجد وقد صيغوا من جديد وصيغ ايمانهم صياغة لا اعوجاج فيها . واذ ذاك نطمئن على مصيرنا ونكون متيقنين اننا سنجتاز مرحلة الخطر بسلام . ونحافظ على ديننا الذي هو مظهر عزنا وبلسم جروحنا وآمالنا فى الماضي والحاضر والمستقبل .



للاستاذ محمد كاظم سباق باكستان

... وبعد ، فهذا المقال كتبته لمجلتنا المحبوبة « دعوة الحق » عسى ان يرضيكم ، ويجد فى صفحاتها مكانه اللائق ...

واحب ان اكرر فى هذا الكتاب اني من زملاء دار العروبة للدعوة الاسلامية بباكستان ، التي معتمدها الاخ الاستاذ محمد عاصم الحداد ، وهو الذي شجعني وحفزني على الكتابة فى هذه المجلة .

اخوكم : محمد كاظم سباق ــ باكستان

مذ غلبت النزعة العقلية على الذهن الانساني ، واضعفت استعداده للايمان بالغيب ، اصبح كثير مما يعتقده اصحاب الاديان من الامور غير المشاهدة موضع السخرية والطعن ، ولما كان المسلمون يعتقدون ان الاسلام هو الدين الكامل الحق الذي يضمن فلاح الانسانية فى فلسفته ونظامه للحياة ، فقد استهدف لذلك الطعن والغمز اكثر من غيره فى هذا العصر .

ومما لفت انظار اهل الدنيا اخيرا الى الاسلام وزادهم اقبالا على درسه ، شدة دوي صوته فى بلاد الشرق منذ الربع الماضي من هذا القرن ، وقيام الحركات المتعددة فيها لاحيائه والدعوة اليه ، فصرنا نرى الذين قضوا زهرة عمرهم اجانب عن الدين بعداء عن بيئته الفكرية والعلمية ــ مسلمين كانوا او من غير المسلمين ــ يتكلفون القول فى الاسلام من هذه الناحية او تلك ، اما بحثا فيه واما اعتراضا عليه او تعييرا له ، فيأتون فى اقوالهم وآرائهم بالمستطرفات .

اذكر من تلك العجائب والطرف حديثا وقع بيني وبين واحد من زملائي المهندسين ، رافقني فى القطار فى سفر قصير ، وهو الاستاذ « خ » الاديب القصصي النابه ، من طبقة الادباء التقدميين فى هذا القطر ، فما اخذ القطار يجري بين كثبان من الرمل حتى اخذنا فى الحديث حول صنوف المواضيع ، ولم يلبث ان مال بنا الكلام الى الاسلام وما جاء به من عقيدة وفلسفة وتصور لهذه الحياة وما بعدها .

وهنا استوى الاستاذ « خ » قاعدا والتفت الي يسائلني بجد : هل فكرت يا اخي فى تصور الجنة الذي عرضه علينا الاسلام ووضعه امام اعيننا مطمحا نسعى اليه بالعمل الصالح فى الحياة الدنيا هل فيه الا ما يعجب ذهنية الانسان القديم Primitive mind او العقل البدوي الساذج ؟ حور وغلمان وجنات وفواكه وغرف وظلال وسرر مرفوعة وارائك مصفوفة واكواب موضوعة تجري من تحتها انهار من اللبن ومن العسل ــ ماذا فى كل ذلك مما عسى ان يستهوي قلب اديب مثقف او فنان لطيف الروح ، فى هذا العصر الراقي ؟ .

قال : وها مثالي انا بين يديك ، فاني اصدقك ان نفسي لا تطمح الى شيء واحد من هذه الاشياء التي يعدونها من نعم الجنة ، فليس اكبر رغبتي فى الاشجار او الانهار ، ولا اكثر شهوتي للبن او للعسل ولا اقصى امنيتي حوراء أزوجها ، او غرفة وسط الرياض اسكنها، وانما احب شيء الى نفسي فى الحياة شيء غير هذا كله، وعسى ان تعجب منه ، هو ان اكون مع عبقري من عباقرة الادب العالميين كشكسبير وجوته وكيتس وشاتوبريان ، فى واد من وديان قصته الرائعة او فى افق من آفاق شعره الغرامي الفاتن ، وبين يدي كوب من الشاي احتسيه كلما غلبني نعاس او مسني لغوب ، فانظر اين هذا كله فى نعم الجنة التي ذكر فى القرآن ، واي شيء منها عسى ان يشوقني الى جنة المؤمنين ، ولماذا اقيد حياتي بقيود الاخلاق والواجبات سعيا فى طلبها .

قلت له : انت تؤمن بالله وبانه هو الذي خلق من في الارض جميعا وما فيها من لذات ومتع ؟ قال : نعم ولا شك . فقلت : االذي خلق في هذه الدنيا تلك القرائح والعقول العبقرية وجعل في نتاجها الادبي ما يفتن نفسا مثقفة مثل نفسك ، الا يقدر ان يهيىء لك ولامثالك في الجنة كلاما اعلى من كلام شكسبير ، وفكرا اسمى من فكر جوته ، وشعرا ابلغ من شعر كيتس ، وبيانا اسحر للب من بيان شاتوبريان ؟ .

قال : بلى ، ولكن انى يكون ذلك في دار الخلد التي لا الم فيها ولا شقاء ولا فناء ولا اضطراب ولا اثم ولا مجون ، وكل هذا الادب الذي انتجته القرائح الانسانية في هذه الحياة الدنيا انما منبعه القلب المضطرب ، والنفس الشقية ، والفكر الحائر والحب الخائب ؛ الا ترى انه لولا خيبة جوته في حبه لعشيقته « شرلوت » لما فاضت قريحته بقصة (آلام فرتر) ؛ ولولا شقاء الشعب الفرنسي بعدوان طبقة الحكام والنبلاء لما جاء (فيكتور هوجو) بروايته الخالدة (البؤساء) ، ولولا حيرة الفلاسفة في ماهية هذا الوجود وفي مبدئه ومنتهاه لما جاؤوا بهذا الادب الفلسفي الممتع .

قلت : اذا كل هذا الادب الذي تلتذ به في هذه الدنيا هو ادب الالم والخيبة والمجون ، فستعرف في الجنة نوعا آخر من الادب ، هو ادب البهجة والسعادة والصلاح ، يقدر على انشائه خالق الادب والادباء ، ولا يستطيع ان يتصوره العقل الانساني المحدود بحدود هذا العالم .

فقهقه ضاحكا وقال : واين ذكره في الكتاب او في الآثار ؟ .

قلت : اصلحك الله اما بلغك ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : « قال الله تعالى اعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رات ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، واقرأوا ان شئتم ، فلا تعلم نفس ما اخفي لهم من قرة أعين » . فالذي لم يخطر ولن يخطر على قلبك منه ، هو ذلك الادب الالهي السامي الذي ستراه هناك وتفهمه وتجد فيه من المتعة الروحية ما يفوق متعتك في هذا الادب الانساني .

قلت : هذا اذا فرض ان نشاتك الفكرية وحالتك العقلية هذه ، ستدوم أبدا ولا تتبدل في اجتيازك هذه الدنيا الى الآخرة ، ولكن من يدري هل الله بقدرته التامة يبدلك بحالتك العقلية هذه حالة أخرى تعود معها تلتذ باجتلاء مناظر الجنة واكل اثمارها والعيش في غرفها اكثر بكثير مما تلتذ بقطعة ادبية رائعة في هذه الدنيا .

ثم قلت له : ياليتك عرفت اللغة العربية يا أخي ، وتذوقت الادب الالهي السامي في القرآن ، فرأيت كيف يسبي القلوب ويسحر العقول ...

وما استكملت جملتي هذه حتى وقف القطار على محطة ، واقتحم علينا العربة عدد من المسافرين ، فاضطرب المجلس وتبدل الجو ، ولم نستطع ان نوالي الحديث فاجلناه الى مناسبة اخرى وسكتنا .

❊ ❊ ❊

قيل ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يصف لاصحابه الجنة وما فيها من لذة ونعيم ، فيقوم واحد من الاعراب فيسأله : يا رسول الله هل في الجنة من ابل ؟ ويقوم آخر ويقول : اني احب الخيل ، فهل في الجنة خيل ؟ فيهدىء من بالهم النبي ويقول : ان يدخلك الله الجنة يكن لك فيها ما اشتهت نفسك ولذت عينك ، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : ان رجلا من اهل الجنة استاذن ربه في الزرع . فقال له : الست فيما شئت ؟ قال : بلى ولكني احب الزرع .

وجاء في طبقات النحاة السيوطي ، ان كان ابو محمد عبد الله بن حمود الزبيدي الاندلسي مغرى بكلام الجاحظ وكان يقول : رضيت في الجنة بكتب الجاحظ عوضا عن نعيمها .

❊ ❊ ❊

هذه امثلة من الطبع الحريص المضطرب المسؤول، من تاريخنا الماضي ، يقابلها مثال صاحبنا في هذا الزمان. فالطبع هو الطبع في حرصه على استدامة ما يحبه ويألفه من الاشياء في الحياة الدنيا ، وذلك دليل على ان الفطرة الانسانية ــ في عاطفتها وشعورها ــ لم تتغير بمرور الزمان ، وانما الذي تغير في الانسان او تطور هو درجته العقلية واسلوبه الفكري ، فبينما حمل اولئك المؤمنين السذج هواهم لشيء من متاع هذه الدنيا على ان يتمنوا وجوده في الحياة الاخرى ، ويسألوا عن أمره النبي صلى الله عليه وسلم ، ويرجوا ان يثابوا به جنة الله ، اذ حمل هذا المسلم العقلي المتفلسف هواه لمتعة من متع هذه الحياة على ان يعيب تصور الجنة في الاسلام وييأس منه ، حين لم يجد فيه التصريح بذكر تلك المتعة .

وفي ذلك زل بصاحبنا عقله مرتين ، ولم يكن من وراء هذا العقل قلب عامر بالايمان حتى يقيله من عثرته ويعيده الى سواء الطريق ، فضل صاحبنا وغوى وجعل يغلو هذا الغلو ويهذي .

الاولى انه حمل الكلمات الواردة في القرآن او في الحديث ، في صفة الجنة والنار ، على مدلولاتها المفهومية في هذه الدنيا بعينها ، فالعنب والنخل والرمان وسائر الفواكه المذكورة في بيان الجنة، تصور منها هذه الاصناف التي نجتنيها في هذه الحياة ، وان منها ما يلذ امرءا ولا يلذ آخر ، وكذلك فهم من ذكر وارف الظلال وجاري الانهار وعالي الغرف في القرآن موصوفاتها التي نعهدها

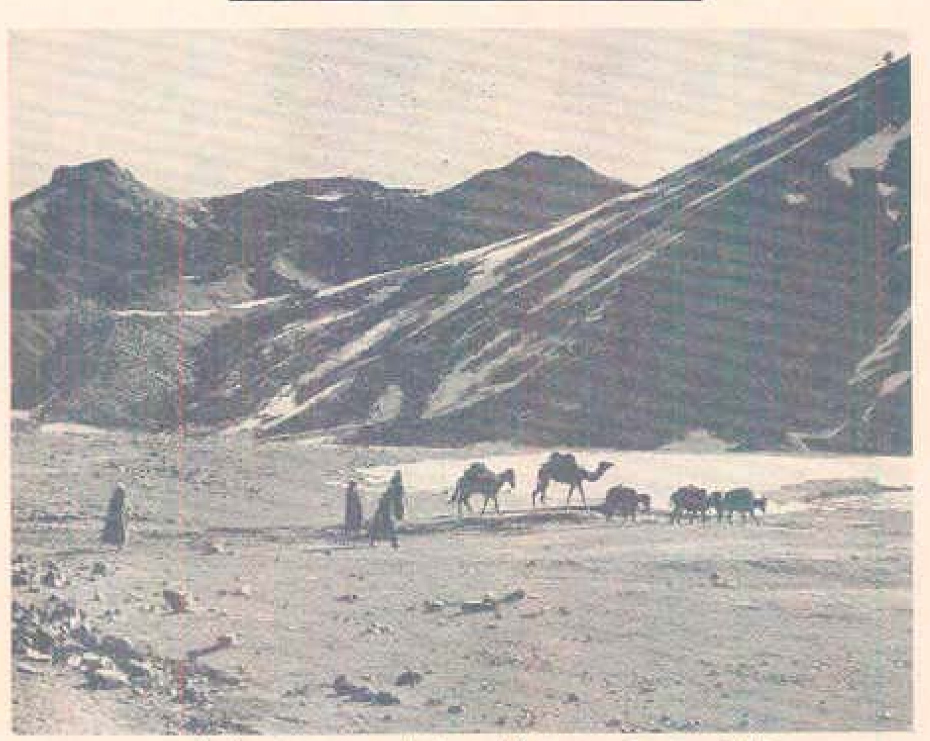
في هذه الدنيا ، فمنا من يتشوق اليها ويبتهج بها ، ومنا من لا يرغب في التنزه فيها او العيش بين اجوائها كثيرا ، ثم توهم الحور العين ان يكن نساء كنساء هذا العالم ، فيهن الظريفة اللبقة وفيهن الفئة الباردة ، وفيهن اللطيفة الروح ، وفيهن المستثقلة الظل ، وهكذا لما تصور كل نعمة من نعم الجنة هذا التصور الخاطىء ، لم تعد الجنة في عينه باحسن من قصر من قصور ملوك الازمنة الوسطى في التاريخ ، يوجد فيه كل ما يلذ حواسك السافلة البسيطة كالجواري والقيان ، واللؤلؤ ، والطنافس والبسط ، والارائك والسرر ، والاشجار والانهار ، والفواكه والشراب ، ولا يوجد فيه ما يهز فيك الحس اللطيف او الشعور الادبي الدقيق .

والحق ان الله تعالى حين اراد ان يصف الجنة التي قد اعدها للصالحين من عباده والتي جعل فيها ما لا عين رات ولا اذن سمعت ، راى ان يصفها بلغة اهل هذه الدنيا وبكلماتهم واساليب اداتهم ، فعبر عن نزلها بالنخل والرمان ، وعن مناظرها بالجنات والانهار والغرف والاظلال ، وعن نفائسها بالزبرجد واللؤلؤ والمرجان ، وهلم جرا ، حتى يدرك الخيال الانساني من تصور الجنة بعض الشيء ، ان لم يستطع ان يدركه كله ، وكذلك حال جهنم فيما وصفت به من الهول الشديد والقعر البعيد ، فكل صورة من صور عذابها المختلفة ذكرت للانسان بهذه اللغة الدنيوية التي يفهمها ، حتى يتحقق المراد بذكرها ، ويرسخ خوفها في قلبه ، وما اهتدى ولاشك من حصر الكلمات الالهية في صفة هذين المثويين الابديين في مفاهيمها الدنيوية .

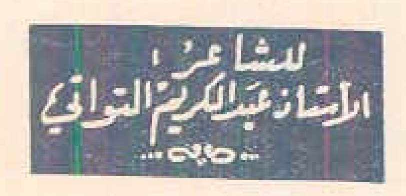
والاخرى : ان صاحبنا نسى ان السواد الاعظم من الذين نزل فيهم القرآن وخاطبهم قبل غيرهم ، لا بل من الذين ما زال يخاطبهم في كل زمان ومكان ، هم عامة الناس واوساطهم الذين لا يعرفون المتعة العقلية والذهنية ولا يهتزون لها مثل اهتزازهم للمتعة الجسدية والروحية ، وان كلاما اذا خوطب به خلق من الناس على طبقات عقلية متفاوتة ، فانه تراعى فيه عقلية السواد الاعظم من العوام لا عقلية الشرذمة القليلة من الخواص ، لذلك اعاد الله تعالى وابدا في وصف النعيم والملاذ التي تعجب جميع الناس على اختلاف طبقاتهم في كل حين ، واعرض عن ذكر ما تختص به طبقة قليلة دون سائرها ، بل ضمن ذلك قوله العام الشامل : ما لا عين رات ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

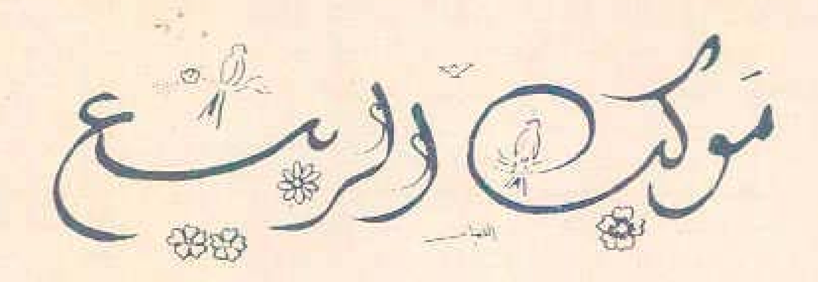
❊ ❊ ❊

بقي ان نذكر في الختام انه وان كان الطمع في دخول الجنة والخوف من عذاب جهنم ، من اكبر الحوافز الايمانية للمرء على عمل الصالحات واجتناب السيئات ، الا ان هناك درجة عليا للايمان ، ينبغي ان يسعى لبلوغها المرء ، وهي أن يطمح الانسان أبدا الى رضا خالقه وربه ، ولا يشغل باله كثيرا بتصور جنته او ناره ، ويجتهد ان يكون ما بينه وبين ربه صافيا كالمرآة في كل حين ، حتى يموت في الدنيا هادىء البال ، ويلقى ربه يوم القيامة بنفس راضية مطمئنة .



قافلة صغيرة ، تنهب الطريق نهبا ، بين شعاب الاطلس الكبير ، وعلى ارتفاع الفين ومائتين وسبعين مترا





همسات الزهور ترقص نشوى تاملات بخمرة الامسيات
والربيع الضحوك يفتر عن عهد حبيب يموج بالذكريات
والنسيم الهيمان يرقص أحلام الحزاني بأعذب الاغنيات
والشحارير مرعشات الاغاني اسكرتها براعم الزهرات
وخرير النهير يحكي في صمت ساحري الانغام بعث الحياة
فيسر الشطآن والورد والزهر تحايا الربيع في همسات
ثم يمضي في لحنه يلهم الدنيا الاغاريد فتشدو باعمق الصلوات
... انه موكب الربيع تبدى ، باركته عرائس الجنات
وافاضت عليه من سحرها سحرا ومن حسنها الوضيء السمات
وحبته الشباب غضا تهادى في مغانيه اجمل الامنيات
ثم غنته في اتساق وابداع مشوقين آيها المغريات
فمضى موكب الربيع يسر الكون ما قد وعى من الآيات
حاملا في يمينه نايه السحري يوحي الوجود لحن الحياة
وفي يسراه حاملا بسمات الفجر وشت بطلها الزهرات

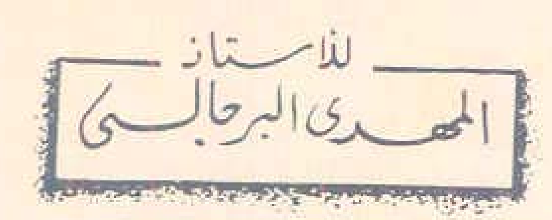
* * *

... وانا والحبيب في غفوة تذكي الحنايا عميقة الصبوات
نتساقى الهوى بعيدين عن كون ملىء بالهزء والسخريات
ها هنا فوق ربوة الحب نستعذب ـ في لذة ـ صدى القبلات
غمرتنا الاحلام والحب والطهر ، وأنسينتا دنى الآهات
ها هنا ، ها هنا دفنا بلا حزن مآسي الحياة والانات
ها هنا في نشوة تعانق قلبانا خليين من شجى الحسرات
وهنا ـ يا هنا ـ تمتع روحانا باغلى واعذب الساعات
وهنا يا دنياي ـ ذاقا اطاييب الاماني في صبوة الرنات
واحسا الحياة تعبق بالطيب فعبا من سحرها رشفات
رشفات مضمخات بانفاس شباب مدلل النزوات
... فلم الشكوى والانين وعمرانا حثيثا المسير والخطوات
فلنغص في اللذات ولندع الياس بعيدا في هذه اللحظات
فغدا ينتهي الربيع ويمضي موكب الحب تاركا آهات
تتلاشى أصداؤها مع خرير النهر والريح ، في دنى الضحكات

* * *

... اي دنيا تلك التي يتعادى فيها ابناؤها على الرغبات
انها دنيا ضل فيها بنوها الحق وانقادوا فيها للشهوات
انها يا حبيبتي مبعث الحزن لهذا الانسان ذي الحسرات
فلندع شانها وشان بنيها ولنناغ الربيع نجوى الحياة

الثقافة العربية





من الظواهر المميزة لهذه الحقبة الحضارية التي نعيشها ، ولوع الامم الحديثة بنشر ثقافتها وآدابها ولغتها بين اكبر عدد مستطاع من المجتمعات والتكتلات الجنسية او السياسية او الدولية .

والواقع ان جوهر هذه الظاهرة ليس بالجديد الطارىء ، ولكن تطورها الاتجاهي واختمار بذورها في اذهان كثير من الشعوب وما يقتضيه كل ذلك من مزيد الحرص وشدة الرغبة والتفنن في الوسائل والتقدير في الاهداف ، هو الطابع الذي يدفع هذه النزعة في الحاضر ويمنحها الشكل الذي حدانا الى اعتبارها من (ظواهر العصر المميزة) .

ومن نافلة القول التنصيص على مدى اتساع هذا المجال ورحابته في حياة الامم الحديثة ، فقد اصبح من البديهيات الضرورية ان تعمد كل امة ـ تبتغي لنفسها مكانة مرموقة بين اعضاء المجموعة الدولية ـ الى التذرع بمختلف الوسائل ، واستخدام كل الامكانيات المؤثرة في نشر اللغة التي تحسبها لسانا قوميا لها ، وتكوين اكبر منطقة استعمال لهذه اللغة بكل ما تحمله من مناح في التعبير وما توحيه من اتجاه في التفكير .

وهذا ما يفسر ـ الى حد ما ـ هذه الظاهرة التي تنطبع بها الحياة اللغوية في العالم ، والتي تبدو معها نسبة امتداد (المجالات اللغوية) على الخرائط في هذا الوضع المثير حقا . فهذه لغات تعتبر اوسع الالسن انتشارا واكثرها انصارا (الانكليزية مثلا) والى جانب ذلك توجد لغات اخرى لا نعتبر انفسنا مغالين اذا اعتبرنا انها من اقدر الالسنة تعبيرا واقواها دلالة واعذبها لفظا واجملها جرسا ولحنا ، ولكنها بالرغم عن ذلك تكاد تكون نكرة خارج هيئة الامم المتحدة اضعف شانا واهون خطرا حتى بالنسبة الى اللغة الصينية ذات الكتابة العمودية !! .

فما سبب هذا وما علة ذلك ؟ .

ليس من الحكمة ان نعزو اصول هذه الظاهرة الى عامل وحيد او علة فريدة ، انها مؤثرات كثيرة ذات طبائع مختلفة يؤول بعضها الى اسباب تاريخية (حركات الغزو الاوربي في الاعصر الحديثة) او جنسية (حالة الولايات المتحدة وكندا وجنوب افريقيا وغيرها) او ثقافية (حالة اللغة الفرنسية في بعض الجهات) كما ان هناك من الاسباب ما له صلة بالاهمية العددية (حالة اللغة الصينية التي يتحدث بها ما ينيف على الستمائة مليون صيني من بينهم 11 مليونا في الخارج) ولكن توافر هذه العوامل او بعضها لاي من هذه اللغات لا يمنع ابناءها من الحدب على منزلتها كلغة عالمية والكلف ـ لتحقيق هذا ـ بانتهاج جميع السبل التي توسع امامها طريق الذيوع ، وتكفل لها اكبر حظ من الانتشار والرواج .

ومن الامثلة على ذلك : اللغة الانكليزية ، فقد اختط هذا اللسان او اختط له ابناؤه ـ بما هياه لهم مركزهم كامة فاتحة وحاكمة ـ طريقا واسعا في مجال الاستعمال العالمي والدولي . وتوجد لغة (شكسبير) في الوضع الراهن في طليعة اللغات العالمية المرموقة ، ولكن الانجليز الى جانب هذا لا يفتأون يستحدثون لها من وسائل النشر ، ويصطنعون لها من اسباب البث ، ما يبدو انهم يستهدفون منه اتاحة الفرصة لها ، لتصبح اللغة العالمية الاولى ، فبالاضافة الى المدارس والمعاهد البريطانية المنتشرة في اي مكان ، والتي ينفق عليها بسخاء في سبيل تحقيق عالمية الثقافة واللغة الانكليزية ، فان الاذاعة اللندنية تقوم بالتعاون مع ثلة من الاختصاصيين ، بوضع برامج لتعليم الانجليزية ، لعلها تستغرق من الحصص الزمانية لمحطة ب . ب . س . ما لا يستغرقه برنامج مماثل آخر .

وهكذا الشأن بالنسبة الى اللغة الفرنسية والروسية والايطالية .

اما لغة الحضارة في العصر الوسيط ، ذلك اللسان الذي حملنا الاسلام والقومية العربية . امانة العمل على نشره واذاعته ، فاننا لحد الآن لم نعن بتوطيد مكانته حتى بين المجتمعات التي تدين له روحيا وتؤمن بقيمته المعنوية العليا ، واعني بذلك الشعوب الاسلامية التي تنتشر في رقع قد تتقارب وقد تتناءى في مختلف اصقاع المعمور .

ومن المفارقات الغريبة التي يوحي بها السياق ، قصة القرآن في هذه المجتمعات الاسلامية غير العربية ، فالمسلم في سورابايا ، او لاهور، او سمرقند ، او غيرها، قد يعكف على قراءته متخشعا قانتا ولكنه رغم ذلك لا يشكل بالنسبة اليه ــ اعتبارا للغة المنزل بهــا ــ الا مجموعة من الغوامض والمستغلقات ، ليس الى فهمها وتدبر معانيها من سبيل ، باستثناء علماء الدين وغيرهم من المتعربين طبعا ــ وهذا شأن الجماهير في البــلاد العربية نفسها ، ولكنه في البلاد الاسلامية الاخرى اشد خطورة واكثر تعقيدا .

ويبدو بعد كل ما سلف مثل هذا التساؤل : هل من المستطاع رد الاعتبار الذي كانت تنعم به العربية يوم كانت لسان الحضارة في العصر الوسيط ؟ هل من الممكن ان نهيىء لها من الاسباب ونصطنع من الوسائل ما تصبح به ــ نوعا ما ــ لغة عالمية ؟ .

اذا غضضنا الطرف عن السؤال الاول فانه قــد يكون في امكاننا الاجابة عن الثاني بنوع من الايجاب . على اننا رغم ذلك سنجد انفسنا قد ابعدنا في الخيال طويلا اذا رجونا للغتنا ان تصبح في بضع سنوات منافسا خطيرا للغات الاوربية الكبرى كالانجليزية مثلا . فقــد توافرت لكل من هذه الادوات التعبيرية الحية ، عوامل مختلفة للرواج ليس لنا ان نفكر جيدا في امكانية الحصول عليها . بيد اننا قد نستطيع ــ مع بعض التفاؤل ــ ان نرقى بلغتنا في مدارج (العالمية) اشواطا ابعد بكثير مما هي عليه الآن من انتشار محدود ، قيد ان تكون خطواتنا الى ذلك محكمة ، واساليبنا موضوعية ومنهجية .

وان اول ما يقتضيه ذلك منا ، العمل على تبسيط العربية الى اقصى حد يسمح به التبسيط غير المحرف، ويستتبع هذا ان يعكف الاختصاصيون المنتدبون من ابناء العروبة على وضع مناهج جديدة لتعليم العربية لغير الناطقين بها ، منتهجين في ذلك احدى الطــرق الفنية الدولية كطريقة (كاسبي اوطو سوير) او غيرها، مع ما يقتضيه المقام من صور التغيير والتعديل .

ثم هذه المحطات الاذاعية المثبتة في جميع ارجاء العالم العربي ، فبوسعنا ان نستغلها ضمن خطة منظمة، وتوزيع للادوار محكم ، في اشاعة اللســان العربي بين مختلف الشعوب ، وذلك عن طريق برامج تعليمية توجه الى عديد من الاصقاع وبمتنوع اللغات لمن يرغب من ابناء الشعوب الاخرى في التعرف على العربية ، وبالتالي في معرفة ادابها وثقافتها كما هو الشان في الاذاعــة البريطانية بالنسبة الى اللغة الانجليزية ، والاذاعــة الباريسية بالقياس الى اللغة الفرنسيــة ، والاذاعــة السوفياتية باعتبار اللسـان الروسي الى غير ذلك .

على ان كل ذلك لا يمنع دوامية قيام المشكل الذي يبدو حينئذ في مظهره السيكلوجي ــ الحاجي الصرف: كيف يشعر هؤلاء الشبان السكسونيون او اللاتينيون او الجرمانيون او الصقالبة بمسيس الحاجة الى تعلم لغة سامية كالعربية ؟ لماذا سيزجون اوقاتا ثمينــة في تلقي اصول لسان لا يحسنون نحوه الا انه وسيلــة للاسترزاق في المستعمرات او المحميات !!

ان دورنا اذن ان نشعر كل هؤلاء بان تعلم اللسان العربي لا يقل اهمية عن تعلم اية لغة كبيرة اخرى، وهذا يقتضينا ان نبدا خطواتنا بالتعريف بمحاسن هذا التراث العقلي والفني الذي تعبر عنه العربية ، والذي يشكل لونا جديدا آخر من الوان المتعة الفكرية ، تتيحه لغة الضاد لمن يقبل على تعلمها واستكناه مواطن الجمال فيها، والواقع ان الترجمة من العربية الى غيرها من اللغات ستلعب اهم الادوار في تحقيق هذا الهدف .

وقد اتيح لنا سابقا ان نرى هذا النوع من التهافت غير المحدود الذي قابل به الجمهور الاوربي ترجمــة المجموعة القصصية (الف ليلة وليلة) فاذا نجحنا في انتقاء مجموعات متنوعة من روائعنا الادبية لنترجمهـا ونذيعها بين الاوساط الاوربية والامريكية ، فاننـــا سنصطنع بذلك للعربية جوا تجد فيه امامها كثيرا من فرص الذيوع والانتشار .

هذا الى انه من الضروري ان تعمد الحكومات العربية الى انتهاج سياسة (الاشعاع الثقافي) فتهتم لذلك بافتتاح مجموعة من المعاهد والكليات في الشرق والغرب ، للتعريف بالثقافة واللغة العربية ، وما يستتبع ذلك من اجتذاب الجماهير الى الاقبال على دراستهــا واستقصاء اصولها ، وتتمحض ضرورة هذا العمــل بالنسبة الى الاقطار الاسلامية العجمية التي علينا حتمية نشر لغة القرآن بين الجماهير والكتل فيها . ولا اخال ان هناك نتائج غير ايجابية قد يمكن ان يتمخض عنها هذا العمل الهام ، وخاصة في المناطق التي تنعم فيها لغتنا بنفوذ روحي هائل ، نتيجة لارتباطها بمعنى الاسلام في الذهنية المسلمة .

على ان كل ذلك لا يمكن ان يكشف عن طيب الثمرات الا اذا كان لهذه اللغة منزلة خليقة بالاعتبار، في نفس الاقطار المنتسبة اليها، والا فلا مفهوم مطلقا لان تلمس للعربية اسباب الذيوع في الخافقين فيما نجدها في مواطنها الاصلية وهي توشك — في بعض الحالات على الاقل — ان تصبح اداة التعبير والتفاهم الثانية.

فمن المعقول ان تكون هذه الرقعة الممتدة من مضيق طارق الى الخليج العربي مجالا رحبا لسيادة الضاد، تلك السيادة التي لا يمكن ان تستكمل جميع صورها الا اذا صار الاجانب في اي نقطة من نقط المنطقة، وقد اصبح كل منهم يحس — لا بتأثير الاكراه ولكن تحت ضغط الحاجة — بان عليه واجب معرفة العربية لتيسير وسائل استيطانه بالبلاد او تعامله معها. ونفس الامر في ميدان العلاقات بين العرب والامم الاخرى. حيث انه من الممكن ان نرجو هذه الشعوب الى الاحتفاظ بقسط من الاعتبار للعربية الى جانب اللغات الاخرى، لامكانية الاتصال والتفاهم والتعامل.

ولا احسب ان هناك من يعزو هذا الاتجاه البريء الى اصول قوامها الاثرة والتهوس، فالامر لا يعدو نطاق خطة تستهدف العمل على الرفع من شأن لغة قيمة يمكن — اذا اقيم لها ما لغيرها من الاعتبار — ان تسهم في تجلية معاني الانسان، كما تعين على تنمية مفهوم الحضارة والافصاح عن مكنوناتها ودقائقها للاجيال المقبلة، بالاضافة الى امكانية مساعدتها على تعزيز جانب التفاهم والتعارف بين المجموعة الاممية من جهة، وبين اعضاء الاسرة الدولية من جهة اخرى.

وبالجملة فان مسؤوليتنا — امة العرب — نحو الضاد، لا يمكن ان تقضي — في بعض النواحي — الى نهايتها، الا اذا نجحنا في اتاحة الفرصة لها مرة اخرى لتصبح — الى جانب اللغات الكبرى — اداة التفاهم بين الدول، والتعارف بين الشعوب. وحينذاك نكون قد اسدينا لانفسنا وللانسانية خدمة جليلة يحفل بها التاريخ، ويباركها الضمير الانساني الواعي.



تغطي غابات الارز الجميلة مساحة كبيرة من جبال الاطلس المتوسط، فتعطي لهذه الناحية صبغة خاصة حيث يبلغ علو بعض الاشجار بها 40 مترا، تتكاثف مع بعضها فتكون ادغالا مخضرة باستمرار، كانها دائما في ربيع، وتتخلل هذه الغابات طرق تمكن من التجول بداخلها والتملي بمناظرها الخلابة

يسّروا السّبيل لفهم الاسلام

للأستاذ
عبد الله الخطيب

كنت مدفوعا الى تادية امانة طوقت بها عنقي فتاة اسبانية ، اذ ابانت لي عن رغبة في نفسها في التعرف الى الاسلام عن طريق دعاة امناء كتبوا عن هذا الدين على ضوء ابحاث نزيهة ، وباساليب مشرقة ، يمكن بعد امعان النظر ان تكون حافزا لها في يوم من الايام ، الى اعتناق الاسلام بعد اقتناعها بوجهة نظر الذين قدموا ابحاثهم على قواعد سليمة من كل الشبهات التي حاول كثير من المغرضين الصاقها بالاسلام .

ولم تكن رغبتها هذه وليدة لجو الحديث الذي دار بيني وبينها ، ولا تملقا لآرائي المتواضعة حول سمو هذا الدين واظهاره امامها بالمظهر اللائق ، وما حسبت انني استطيع ان امتلكها الى رايي بعد ما كنت معها متحفظا الى حد انني اشعرتها بان الديانات السماوية تكاد لا تختلف في عمقها وجوهرها ، وكل ما طرا من خلاف لم يكن منشاه الا بعض الصور والمظاهر ، او بعض البدع ابتكرها ادعياء الدين وتجاره .

ولم يصل حديثي معها عند هذا الحد حتى بادرتني في الحاح لتسهيل مهمتها والاخذ بيدها الى الاتصال بهذه الدراسات التي اصبحت تشعر انها في اشد الحاجة اليها .

وكم كنت مرتبكا امام الحاحها ، لانني وجدت نفسي ملزما ان اتجنب بها مواطن الزلل التي تزخر بها نشرات الدعاية الرخيصة ، وهنا ايقنت اننا لا نخضع حتى الآن في الدعوة الاسلامية الى برامج مهيئة ، وكم كنت موفقا عندما تغلبت على احراجها لموقفي من طلبها، فاعتذرت لها عن عدم وجود ما يكفيها في هذه الناحية ، وفاجأتها في الحين بان هذا الموضوع يحتاج الى الاخذ براي من لهم المام كبير بالدراسات الاسلامية ، وقلت لها ان خير من يمكن الاطمئنان الى توجيهاته واخلاصه، هو الاستاذ الكبير عبد الله كنون .

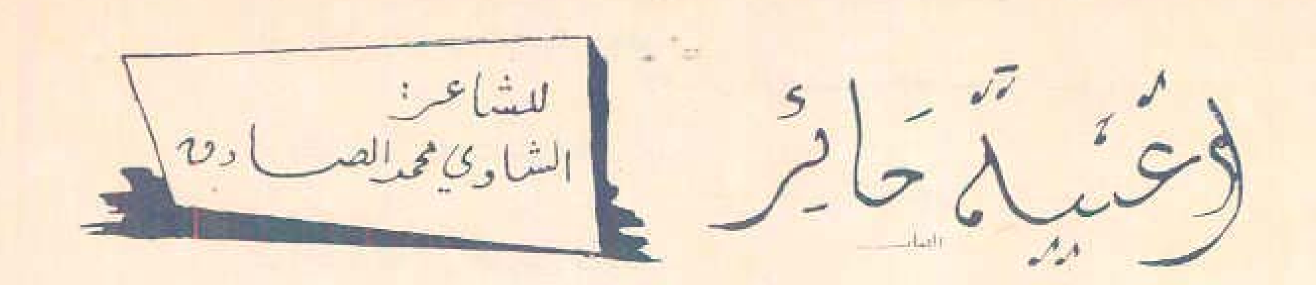
ولم يمض علي يوم حتى التحقت بمنزل الاستاذ، رفاتحته في الامر ، ولكنه لم يمهلني حتى بدا يزودني بخير المصادر ، وارشدني الى امهات الكتب التي تناولت بالبحث والتمحيص شتى الموضوعات الاسلامية ، ولم اكد استقي هذه الاخبار حتى شعرت بانني تغلبت على اثقال هذا العبء الخطير ، واسلمت هذه الامانة الجليلة الى يد اقل ما يقال عنها انها كانت من خير الادوات لخدمة الاسلام بروح من الانصاف والنزاهة وصادق المعرفة ، ووفرة الاطلاع .

بعد ما انهيت مهمتي في القيام بهذا الدور الذي املاه علي واجبي كمسلم ، صعب علي ان اودع حضرة الاستاذ ، دون ان اجره الى الحديث حول ضعف الوسائل عندنا في سبيل خدمة الدعوة الاسلامية ، وتسهيل هذه الوسائل حتى تصبح في متناول ايديهم دون ان يرهقهم ذلك عناء البحث ، او بذل المال .

ولقد توصلت الى هذه الحقيقة المؤلمة عندما وجدت ان جميع المصادر والكتب التي عددها لي الاستاذ كنون، تكاد تكون نادرة ، خلا ما يوجد من بعضها في خزانات المكاتب الرسمية للحكومات التي تدعم الثقافة العامة في اطراف العالم . واذا كان من المصادفة العثور على كتاب من هذا المستوى في المكاتب التجارية ، فان ثمنه كثيرا ما يضعف الرغبة في نفوس ذوي الحاجة الى الدرس والاطلاع .

وامام هذا المشكل فاني ارى من واجبي ان اتقدم بروح مشبعة بالغيرة والاخلاص الى جميع الحكومات الاسلامية، مطالبا اياها بالالتفات الى تخصيص اعتمادات هامة من ميزانيتها العامة لتهيىء مشروع واسع النطاق، لطبع مؤلفات متنوعة تعنى بالدراسات الاسلامية ، بحيث يمكن توزيعها في شبه نشرات باستمرار وبالمجان، وبذل المساعي في بثها في المحافل والهيآت ، مع الاعتناء بالترجمة الصحيحة ، ليصل صدى الاسلام الى العقل البشري في صوت سليم ومشوق .

والى جانب هذا المجهود ، لا يمكن الاستهانة ايضا بتهييء طائفة من العلماء الذين يطيقون الصبر على تحمل هذه الامانة فوق ظهورهم ، ساعين بها الى حيث تغزو هذه الدعوة جميع القلوب ، وتتمكن من نفوس ذوي العزيمة في تلقي التعاليم التي تابى الا ان يسعد العالم في ظل من الرفاهية والاخاء والوئام .





يا سائرين على الرؤوس ببابيا
هل في الوجود مهمة لبقائيا ؟

ما للحياة كنانة ، ونجومها
مثل السهام توغلت بفؤاديا

أين الفرار ؟ وكل أرض جمرة
وذه البحار دموع لحن غنائيا



ان الصعود على الحزون لمتعة
وهل النزول مكدر لصفائيا ؟

وهل السفائن بالشراع تسير ام
قلب البحار مسير لشراعيا

لغز الحياة فكاهة لمن انتحى
غير الرشاد مرنحا متباهيا

كيف الوصول الى الحقيقة يا ترى
ومن المضمد يا ترى لجراحيا ؟

اهي الحياة مريضة ؟ ام انا الذي
في علة وبلاهة متماديا ؟

زاد الحياة ... وأي زاد اجتني ؟
عبء ثقيل حمله كشبابيا

شيم النفوس جهالة وتكالب
وتطاحن ... فمن المجيب ندائيا ؟

وهل الطبيب مضمد لجراحتي
ان الطبيب دواؤه بدمائيا

ان الليالي بالظلام تدثرت
رغم النهار وشمسه وشبابيا

وهي اللفائف في الفضاء دخانها
وهي الزهور تجففت بجنانيا

وذه الثلوج على الجبال تجمدت
وتدفقت عبر السهول سواقيا

وتسابقت نحو الردى بتلهف
فترشفت ظما الرمال حياتيا

يا سائرين : أمامكم ، ويحفكم
شر الاتون برفطه متصابيا

فهل التكالب والتناحر عزة ؟
وهل الخنافس تستحق ثنائيا



جوق الموسيقى الاندلسية ، بالاذاعة الوطنية المغربية ، ويبدو افراد الجوق باللباس الوطني ممسكين بايديهم الاتهم الموسيقية، كما يبدو فى وسطهم باللباس العصري مدير الاذاعة الوطنية المغربية ، السيد قاسم الزهيري والصورة ماخوذة فى قصر من القصور المغربية الجميلة ، المشيدة على النمط الاندلسى البديع



سبق لمجلة (دعوة الحق) ان حيت فى حرارة ، فى بعض اعدادها السابقة ، مولد رصيفتها الجديدة مجلة « رسالة الاديب » .

وقالت (دعوة الحق) فى حديثها عن (رسالة الاديب) انها لا تريد ان تقول رايها فيها ، وانما تريد فقط ، ان تحييها ، وان تهنىء القائمين عليها من رجال « جمعية الاديب » المراكشية .

والآن ، وقد خطت « رسالة الاديب » خطوة اخرى ، فاصدرت عددها الثاني ، فى حجم اكبر ، وشكل اكثر اناقة ، وفى موضوعات متعددة شيقة وطريفة ، وحافلة بالانتاج الممتع والفكر الحر والوطنية الصادقة ، فان « دعوة الحق » لن تتردد الآن فى ابداء الراي الذي احجمت عن ابدائه عند صدور العدد الاول .

وراي « دعوة الحق » فى مجلة « رسالة الاديب » لن يكون عادلا باي حال من الاحوال ، ولن يكون مجردا ولا صادقا كل الصدق ، ذلك لانه راي الاخ فى اخيه ، ومهما يكن من قدرة الانسان على التجرد فى الحكم ، فانه لن يستطيع ان يحكم على اخيه حكما مجردا من كل اعتبار .

❊

« رسالة الاديب » قبل كل شيء ، عمل ايجابي سيكون له من غير شك ، تاثير كبير على مستقبل الثقافة والفكر فى المغرب ، ويكفي من فضل هذا العمل، ان جماعة من الشبان المثقفين المؤمنين بوطنهم ، وبعظمة المسؤولية الملقاة على كاهل المثقفين من ابناء هذا الوطن، قرروا ان يتحدوا كل شيء، ان يتحدوا الركود والسلبية والكسل الفكري ، وما الى ذلك من هذه الصفات التي تكررت شكوانا منها دون ان نحاول عمل اي شيء للقضاء على اسباب هذه الشكوى .

قررت « جمعية الاديب » ان تتحدى كل شيء ، وقد تحدته وانتصرت عليه بالفعل ، فبرهنت بذلك مرة اخرى ، على ان الداء ليس مستفحلا الى الحد الذي نتوهمه ؛ وان ما علينا الا ان نعمل بدل ان نشكو ، وان العمل الايجابي لابد ان يجد صداه او يخلقه خلقا ، ولابد ان يفرض الايمان به على الناس مهما يكن من امراضهم وعنادهم وسلبيتهم وعدم شعورهم بالحاجة الى الحركة، او الغذاء الفكري ، ومهما يكن من ايمانهم بقيمة الراحة التي ينعمون بها فى ظل الكسل والصمت والفرار من ابداء الراي او مناقشته فى وضح النهار ، وعلى صفحات الجرائد والمجلات ، وعلى ملا من جمهور القارئين والكاتبين .

و « رسالة الاديب » بعد ذلك وهي لا تزال فى خطواتها الاولى ، مجلة مشرقة فى شكلها ومحتوياتها، وانت اذ تتصفح العدد الثاني ، تجد نفسك بين الحديث عن مشاريع واقتراحات عملية ، لتكتيل طائفة رجال الفكر ، وخلق جو صالح للتعاون بينهم ، وبين احاديث مع رجال الوفود التي اشتركت فى مؤتمر اللجان الوطنية العربية التابعة لليونسكو ، الذي انعقد بفاس فى اواخر شهر يناير الماضي ، عن الحركة الادبية بالمغرب ، وعن الموسيقى الاندلسية او المغربية ، وعن حضارة المغرب ، وكفاحه والآمال المعقودة على مستقبله وبين مقالات ودراسات فى التاريخ والدين والفن والفلسفة والمشاكل الاجتماعية ، وبين قصائد شعرية فى التغني بالحرية والكفاح والحب واسرار الحياة ، وبين ابواب اخرى للاخبار الادبية والسياسية والاصداء الشعبية ، وغير ذلك من كل طريف مشوق ممتع .

❊

اما عن القيمة الذاتية للموضوعات ، فهي ككل ما يمكن لاية مجلة ناشئة بالمغرب ان تحصل عليه من المقالات ، قليل من الدراسات والافكار الناضجة ، وكثير من المحاولات .

ونحن ممن يؤمن بدور المجلة الممتاز عن دور الصحيفة اليومية ، وعن دور الكتاب ايضا ، فى نشر الوعي الثقافي وتعميمه ، وخلق الجو الصالح للاهتمام به والحديث عنه والمناقشة حوله ؛ ذلك ان الصحيفة اليومية لا تستطيع ، وليس من همها ايضا ، ان تعنى بالثقافة ، لان مهمتها الاولى الاخبار ، وان كانت لا تغفل ان تحاول افادة قرائها من غير ان تشق عليهم او ترهقهم عسرا من امرهم ؛ ومهمة الكتاب ان يتحدث الى طائفة مخصوصة من الناس ، تجد من الوقت ومن

الطاقة الفكرية ومن الرغبة والالتذاذ بالمعرفة ما ينسيها نفسها ويساعدها على الخلو الى الكتاب تتصفح أوراقه الكثيرة ، وتتبع من غير ملل اطراف الموضوع او العلم الذي يعنى الكتاب بدارسته .

اما المجلة فهي بين وسط ذلك ، مهمتها ان تنشر الثقافة والعلم والادب والمعرفة بين اكبر عدد ممكن من الناس ، وعليها بعد ذلك أن تختار الاسلوب الذي يساعدها على اداء هذه المهمة ، فلا تبعد كل البعد من المستوى العام للمعرفة في البيئة التي تصدر فيها ، ولا تنزل بالمرة الى هذا المستوى العام ، بحيث تتركه يجذبها اليه عوض أن تجذبه ، وبتحكم فيها بدل ان تتحكم هي فيه .

ونحن ، تبعا لذلك ، ممن يؤمن ايضا بان المقال الصحافي غير المقال الذي يكتب للمجلة .

فالصحيفة تعيش يوما واحدا لتزود الناس بالاخبار ، ولتطرفهم وتسليهم وتذكي حماسهم ، وتربي فيهم الوعي الوطني ، كل ذلك في اسلوب خفيف، وفي غير عمق قد يثقل على عامة القارئين .

اما المجلة ، خصوصا اذا كانت شهرية ، فانها تحيى شهراً كاملا بكل معاني الحياة ، ثم تعيش بعد ذلك دائما ، حياة اخرى ، ليست في عنف حياتها الاولى واشراقها ، ولكنها حياة على كل حال .

ومن ثم كان للمقالات التي تكتب للمجلة اعتبار خاص ، وكانت تستلزم من العناية والتفكير واجالة الراي وجودة التعبير ، ما لا يستلزمه المقال الصحافي العابر .

وسنكون مغالين متبطين اذا اشترطنا في كل مقال ينشر في مجلة ، في مثل الظروف التي نجتازها نحن الآن ، ان يكون من هذا القبيل ، ولكن ما لا يدرك كله ، لا يترك كله جملة واحدة ، فنحن نشجع المحاولات ونرحب بها ، ولكننا نشترط ان تكون محاولات جدية ، وان تدل على ان اصحابها كانوا مخلصين فيها ، وان يكون في كلامهم فكرة ، ان لم تكن ناضجة كل النضج ، ومعبرا عنها احسن تعبير ، فلا اقل من ان تكون فكرة على كل حال .

ليس هذا الكلام، فقط ، من وحي بعض الموضوعات التي قرأناها في مجلة « رسالة الاديب » ، ولكنه كلام عام ، يمكن ان يساق بهذه المناسبة ، كما يمكن ان يساق لغيرها ، ومهما يكن ، فنحن لا نطلب الى « رسالة الاديب » ان تشتد في اختيار ما تنشره ، ولكننا نرجو لها الا تتساهل فيه كل التساهل ، والا تجعل المسألة مسألة فراغ ينبغي ان يسد باي وجه من الوجوه ، وانما مسألة محاولة جدية لخلق وعي ثقافي صحيح وناضج ومفيد ، وذلك لاننا نحب « رسالة الاديب » ونحرص عليها ، ونريد لها ان تكون بحق « رسالة الاديب » الاديب المغربي الواعي الشاعر بمسؤوليته ، المستعد ليجهد فكره ، ويبذل وقته عن سخاء ، ويتحمل السهر والصبر ، ومناقشة الراي والايمان به ، قبل ان يتقدم به الى الناس .

*

وكلمة اخرى نريد ان نهمس في آذان القائمين على مجلة « رسالة الاديب » ونرجو ان تتسع لها صدورهم ، وان يرفضوها اذا لم يجدوها صحيحة صادقة ، على ان يعتبروها دائما من وحي الاخلاص والصراحة والغيرة على صرح هذا الوعي الثقافي الذي نجتهد جميعا في بنائه متعاونين متكاتفين .

هذه الكلمة هي اننا نحب لهم ان يتذرعوا بشيء من التواضع ، وان يتواروا قليلا ليفسحوا المجال للعمل البنائي الجاد الذي ندبوا انفسهم للقيام به ، اعني الا يلحوا على القارئين بصورهم كثيرا ، والا يحرصوا على اغتنام كل فرصة ، لاخذ صورة لهم مع هذا الشخص او ذاك ، وفي هذا الوضع و وضع آخر ، ذلك لان الدعاية للاشخاص تقلل من الثقة بهم اكثر مما تدعو الى هذه الثقة ، وليس من بأس مطلقا على المجلة، اذا لم تنشر صور محرريها ، وهم يتحدثون باسمها الى شخصية من الشخصيات ، فان ذلك من تقاليد الصحف اليومية ، وليس من تقاليد المجلات الادبية والعلمية ، وليس كل ما يقبل في صحيفة يومية ، يقبل في مجلة ، خصوصا اذا كانت تحترم نفسها ، وتريد ان تحمل الناس على احترامها .

*

واذا كنا ننظر الى هذا النوع من التواضع الذي ذكرناه على انه فضيلة ، فاننا لا نتردد في ان نستنكر نوعا آخر من التواضع ، نلاحظه في مجلة « رسالة الاديب » نفسها ، ذلك هو تستر بعض كتابها تحت امضاءات من نوع (ابن الشعب) ، و (مرب) ، و (مؤمن) و (وابي منظور) ، و (فكه) ، و (اديب) ، و (رقيب) .

ذلك لانه لا موجب مطلقا لهذا التشدد في « الحجاب » ، لا موجب لهذا التستر والتكتم والتواضع المصنوع ، بل انه ليوحي بعقلية من نوع خاص لا ادري بالضبط كيف اسميها . ان فيها شيئا من العقلية التي يكونها عند بعض الناس انهم ولدوا وتربوا في بيئة (متحجبة) ، تؤثر (الستر) دائما والاختفاء وراء شيء .

ان من حق كل واحد ان يعلن عن رايه ، ومن واجبه الا يخجل وهو يفعل ذلك ، والا يقف وراء الباب ويحكم اغلاق النوافذ قبل ان يقول هذا الراي .

وان من حق القارىء ايضا ، ان يعرف من الذي يكلمه ويكتب له ويحاول ان يقنعه ، ومن الظلم للقارىء والتجني عليه ان تتمكن بما تنشره لك المجلة من محاولة التاثير في عقله ، وان تتركه هو ، وهو يقرا لك ، يتخبط ويناقش شخصا مجهولا لديه كل الجهل لا يعرف من امره شيئا .

ان الافكار مهما تجردت ، فانها لا تستطيع ان تنفصل عن اصحابها ، ثم ان هذه الامضاءات المزورة توحي بعدم الثقة ، والا فما يمنعك ككاتب مؤمن بما تقول ، وواثق من صدق الفكرة التي تدافع عنها ، من ان تسفر عن وجهك ، وترفع من صوتك ، وتترك للقارىء بعد ذلك حق مناقشتك اذا لم يجد من نفسه الاستعداد الكافي للتسليم بما تلقي اليه .

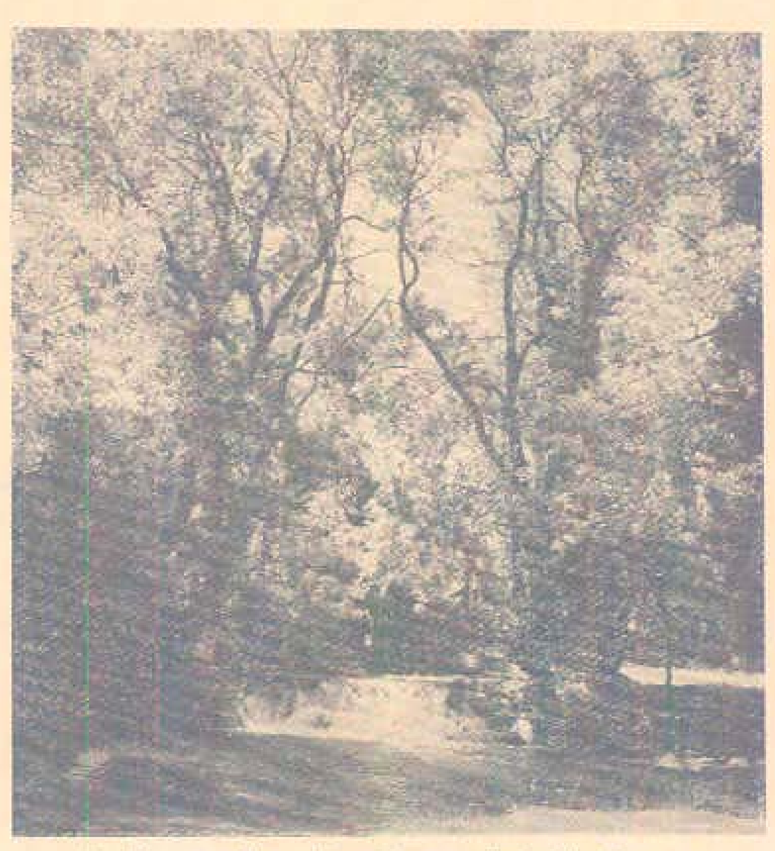
*

تلك بعض الملاحظات العابرة التي اوحت الينا بها قراءة العددين الاول والثاني من مجلة «رسالة الاديب» وهي مهما يكن من شانها فانها لا تستطيع ان تنال من قيمة العمل الايجابي الجدي الذي تضطلع به جمعية الاديب المراكشية في مجلتها المحبوبة الرائعة « رسالة الاديب » .

ولعلنا قد كنا مضطرين الى تصيد هذه الملاحظات حتى لا نتهم عند القارىء في حديثنا عن مجلة « رسالة الاديب » . فقد اسلفنا اننا لن نستطيع ان نتحدث عنها الا حديث الاخ عن اخيه ، وكم يضطر الاخ احيانا ان يتحامل على اخيه ، وان يتصيد له الملاحظات حتى لا يتهم في حكمه عليه .

مرة اخرى ، تهانينا الحارة لجمعية الاديب المراكشية ، ومتمنياتنا الطيبة لمجلة « رسالة الاديب » بالتوفيق والنجاح وطول العمر حتى تؤدي رسالتها كاملة .

عبد القادر الصحراوي



من مناطق الرياضة وصيد الاسماك ، بالقرب من القرية الجميلة « يفران » في الاطلس المتوسط

فهرس العدد العاشر

دار السلمي
للتأليف والنشر والطباعة والتوزيع
زنقة الحرى رقم 28 بالمدينة درب السلطان
صندوق البريد 4010 تلفون 304.01 البيضاء

مطبعة فضالة ـ فضالة



من آثار « السعديين » بتارودانت منظر جزئي من منارة المسجد الكبير ، ويبدو فيه الترصيع بالفسيفساء الصغيرة المختلفة الالوان
آية من الفن والذوق الرفيع